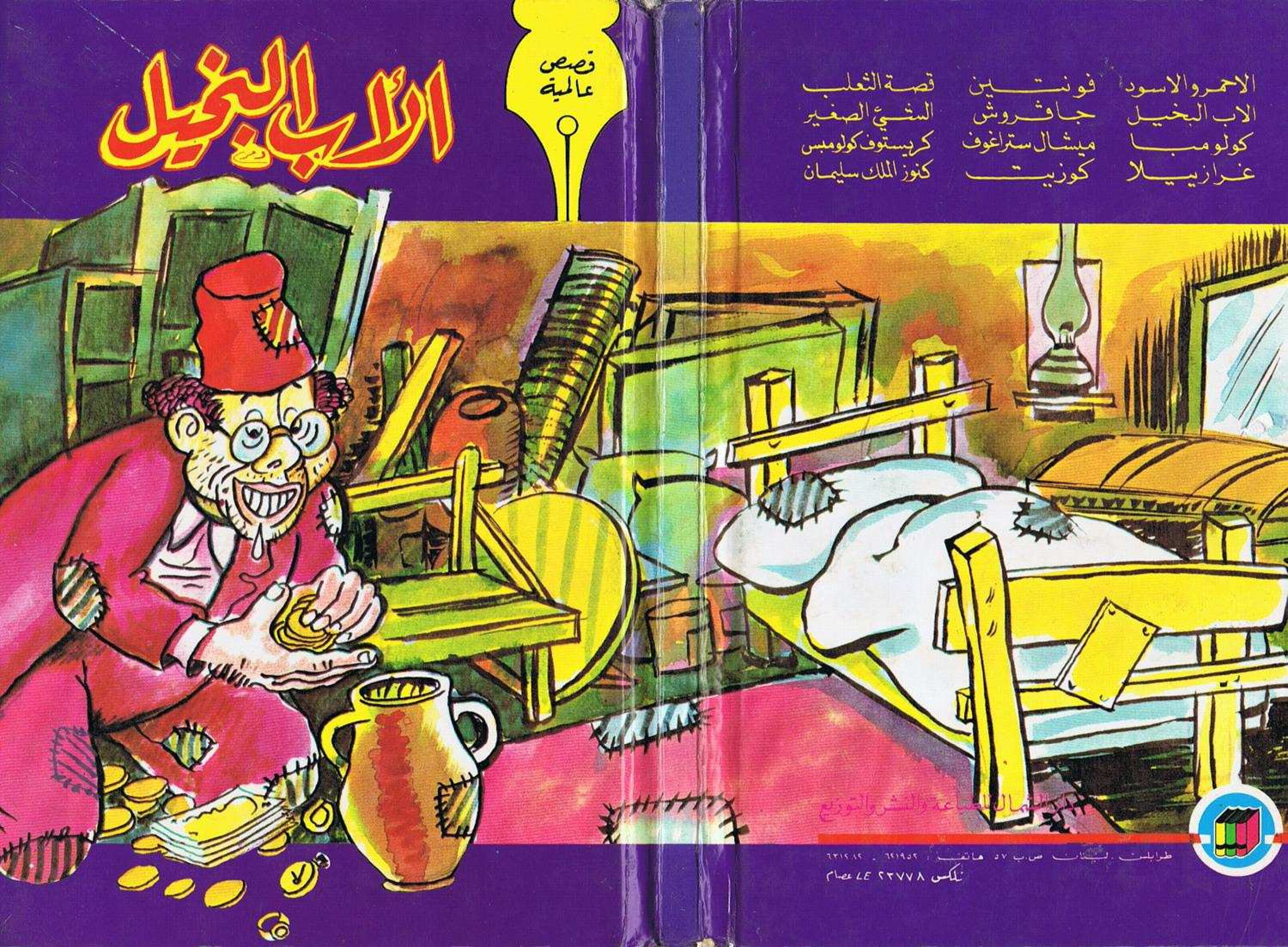


الأب البخيل
قصص عالمية
الاحمر والاسود
الاب البخيل
كولومبا
غرازييلا
فونتين
جاقروش
ميشال ستراغوف
كوزيت
قصة الثعلب
الشيء الصغير
كريستوف كولومبس
كنوز الملك سليمان
الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ . ٦٣١٢١٢
تلكس ٢٣٧٧٨ LE عصام

الأبُ البَخيل

ترجمة : بدر زعاطيطي

مراجعة : سيف الدّين الخطيب

الطبعة الأولى

١٩٨٣

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان: تلفون ٦٣١٢٨٢

سومير

في بعض المدن الصغيرةِ بيوتٌ تبعثُ الكآبةَ في نفوسِ النّاظِرين إلَيها، فالحياةُ فيها هادئةٌ لدرجةٍ تبدو معها غيرَ مأْهولةٍ، وفجأةً يرى الغريبُ وهو يمرُّ في الشارعِ وَجهاً شاحِباً يُطلُّ من إحدى النّوافذ. وعلى جانِبَيْ هذا الشّارعِ الحارِّ صيفاً، البارِدِ شتاءً والمظلمِ في بعضِ أرجائه، تقومُ دورٌ خشبيةٌ عمرُها ثلاثُ مئةِ سنةٍ، من الصّعبِ ألاّ يمرَّ المرءُ دون أن ينظُرَ إليها. فالخشبُ رُغمَ تآكِله بفعلِ المطرِ والشمسِ لا يزالُ جميلاً.. أمّا الأبوابُ فعليها مساميرُ تُشكِّلُ بعضَ الرّسوم. هنا يكمنُ تاريخُ فرنسا بأكمله.

قاعاتُ التُّجّارِ المنخفِضةُ لا تزالُ كما كانَتْ في القرنِ الثاني عشر، لا يدخلُها الهواءُ والضوءُ إلاّ بصعوبة. أمامَ هذه القاعاتِ وعلى حائطٍ صغيرٍ يعرضُ الباعةُ بضاعتَهم. أُدْخُلْ ترَ فتاةً نظيفةً تتركُ عمَلها عند وصولِكَ وتُنادي أباها أو أُمَّها

فتشتري بُلُطْفٍ أو بغضبٍ ما قيمتُه قِرشان أو عِشرون ألفاً من الفرنكات.

تأمّلْ ذلك التّاجرَ الجالسَ أمامَ بابِهِ يتحدّثُ الى جارِه. ورُبّما اعتقدتَ أنّه ليس لدَيه ما يبيعُه سِوى ألواحٍ خشبيّةٍ قديمة، فلا تنخدِعْ لأنّ كلَّ بائعي البراميلِ في المقاطعةِ يقصدونَه لِشراء الخشب. غِناهُ وفَقرُهُ يتوقّفان على الشّمسِ والمطر، فالطّقسُ هُنا يلعبُ دوراً شديدَ الأهميّةِ في الحياةِ، ويحتاجُ إليه مُزارعو الكرمةِ وبائعوا الخشبِ والبراميل. إنّهم يَخْشونَ المطرَ والرّيحَ والجفافَ ويحتاجون دائماً إلى الشمسِ والماءِ وبعضِ الغيومِ. لذا يسمعُ المرءُ من طرفِ هذا الشّارعِ الرئيسي في البلدةِ عباراتٍ كهذهِ: «هذا طقسٌ من ذَهَب!». أو «السّماءُ تمطرُ نُقوداً.»

عندَ ظهرِ السبتِ واذا كان الطّقسُ جميلاً تُغلَقُ جميعُ المخازنِ، فالتّجّارُ يمتلكونَ كروماً ويذهبونَ لقضاءِ يومَين في الرّيف. أمّا باقي الوقتِ فهم يعملونَ ساعَتَيْن من إثنَتَيْ عَشرَةَ ساعة، وهذا يعني أنّ بإمكانهم رُؤيةَ ما يحدُث، فلا تَبتاعُ امرأةٌ دجاجةً دون أنْ يَسألَ الجيرانُ ما إذا كانت قد طُبختْ كما يجب، ولا تُطِلُّ فتاةٌ برأسِها من الشّبّاكِ دونَ أنْ يراها الجميع... الحياةُ تدورُ فصولُها في الهواءِ الطّلق.. يأكُل

النّاسُ ويتناقشونَ أمامَ البابِ ويسخرونَ من المارِّ الغريب.

وفي أعلى الشّارعِ المؤدّي إلى القصرِ يسكنُ الأغنياءُ. هناكَ دارٌ تبعدُ عن الشّارعِ أكثرَ من مثيلاتِها، تقعُ في مكانٍ مظلمٍ لا يكادُ يُرى فيه مَدْخَلُه. إنّه نزْلُ السيد غرانديه.



السّيد غرانديه

كانَ السيدُ غرانديه، أو الأبُ غرانديه كما يدعوهُ البعضُ، عام ١٧٨٩ براميلياً يُحسنُ القراءةَ والكتابةَ والحساب. بعدَ بضعِ سنينَ تزوجَ ابنةَ تاجرٍ ثريٍّ واشترى بقليلٍ من المالِ أجملَ كَرومِ المنطقةِ وبعضَ مزارِعِها. باع الخمرَ للجيشِ وقبض ثمنه مُروجاً. أصبح عُمدةً، فكان عُمدةً صالحاً، لكنّه قبل كلِّ شيءٍ كان مُزارعَ كرمة. وفي عهدِ الأمبراطورِ نابليون اضطرَّ السيد غرانديه للتخلّي عن منصبهِ فلم يحزنْ لأنه كان قد شقَّ لصالحِ البلدةِ طُرقاً جيدةً تُوصلُ إلى حقوله ومزارعه، وكانت كرومُه تُعطي أفضلَ نبيذٍ في سومير. .

وفي سنة ١٨٠٦ بلغ غرانديه السّابعةَ والخمسين من عمرِه وزوجتُه السّادسةَ والثّلاثين وابنتُه أُوجيني العاشرة، وفي هذه السنةِ تلقّى مالاً وافراً لوفاةِ ثلاثةِ أقرباء لزوجتِه كانوا كلّهم بخلاءَ يمضونَ الساعاتِ بتأمّلِ ذهَبهم.

وهكذا أصبحَ للسيد غرانديه مزيدٌ من الكرومِ والمروجِ والمزارع، وهو ما يستطيعُ سكّانُ سومير رؤيتَه.فقط شخصانِ لا ثالث لهما كان بوُسْعهِما أنْ يقولا مقدارَ ما بحوْزتِه من نقود، أحدهُما الكاتبُ العدل: السيد كريشو، والآخرُ أغنى صاحبِ مصرفٍ في سومير وهو السيد دي غراسّين، وكلاهُما كانا يُحيّيان السيد غرانديه بمُنتهى التّهذيب.

كان النّاسُ يخشونَه قليلاً في سومير والتّجّارُ يقولون للغرباء: «لدينا هنا، اثنان أوْ ثلاثةٌ من أصحابِ الملايين، لكنّ السيد غرانديه لا يعرفُ كلَّ ما يملك».

كانتْ طريقةُ السيد غرانديه في العيشِ بالغةَ البساطةِ، فلم يكن صانعُ البراميلِ يشتري أبداً خُبزاً ولا لحماً، إذ كان مزارعوهُ يحملونَ إليه أسبوعياً كلَّ ما يلزمُه من الدّجاجِ والبيضِ والزّبدةِ والقمح. وكانتْ خادمتُه نانون تُعِدُّ كلَّ سبتٍ خُبزَ الدّار.

كان غرانديه قليلَ الكلامِ يكتفي بجُملٍ قصيرة، ولديه جوابٌ على كلِّ الأسئلةِ الصّعبة. لم يكنْ يقولُ أبداً نعمْ أو لا، بل: «لا أدري، لا أستطيع، لا أُريد، سنرى ذلك.» وفي بعضِ الأحيانِ كان يقولُ أيضاً: «لا أستطيعُ أنْ أقولَ لكَ شيئاً قبل أنْ أحدّثَ زوجتي بالأمر». . وكانتْ هذه العبارة

نوعاً من التّهرّبِ من الإجابة، فالسيدة غرانديه لم تكنْ تعرفُ شيئاً ممّا يفعلُه زوجُها.

كان السيد غرانديه صلبَ العود، عريضَ المنكبيْن، مستديرَ الوجه، ذا أسنانٍ بيضاء وعينيْنِ صفراويْن (كقِطعِ الذّهبِ التي كان يتأمّلُها ليلاً، كما يقولُ البعض) كانت طريقةُ لبسِه واحدة: بنطالٌ من القماشِ الكستنائيِّ اللّونِ وثوبٌ فضفاضٌ من نفسِ اللّون، فربطةُ عنقٍ وقبّعةٌ سوداوان وحذاءٌ رمادي.



نانون الطويلة

كانوا ينادونَها بهذا الإسمِ لأنها كانتْ طويلةً جداً. لم تكن تتقاضى أجراً طيّباً، لكنّها كانَتْ تُعتبرُ من أغنى خادماتِ سومير، ففي خمسةٍ وثلاثين عاماً من العملِ القاسي عند السيد غرانديه، استطاعتْ أنْ تُودعَ مبلغاً محترماً من المالِ لدى الكاتبِ العدل.

أمّا كيف أتتْ نانون لِتخدمَ أغنى رجلٍ في سومير، ففي الثّانيةِ والعشرينَ من عُمرِها لم تكنِ البنتُ المسكينةُ قد تمكّنتْ من إيجاد عملٍ لبشاعةِ وجهِها. أُجبرتْ على مُغادرةِ مزرعةٍ شبّتْ فيها النّار، فوصلتْ إلى سومير تبحثُ فيها عن عمل. وعندما رآها الأبُ غرانديه تُشبهُ الرّجلَ في تكوينها، أدركَ فوراً أيّة خدماتٍ تستطيعُ أنْ تؤدّيَها، فألبسَها وأطعمَها ودفع لها نقوداً دونَ أنْ يُبالغَ في القُسوةِ عليها. بكتْ نانون الطّويلة فرحاً ونفّذتْ كلَّ طلباتِ البراميلي.

عَمِلتْ نانون كثيراً فطهتْ وغسلتِ الثّيابَ في نهرِ اللّوار وحملتْهُ على كتفيْها، كانتْ تنهضُ مع الفجر، وتنامُ في ساعةٍ مُتأخِّرة، وكان مطبخُها نظيفاً على الدّوام.

وبعد أنْ تغسلَ الآنيةَ وتجمعَ بقايا العشاءِ وتطفىءَ النّار، كانْت تتركُ المطبخَ وتأتي فتعملَ قُرْبَ أسيادِها. في المساءِ كانْت تنامُ في غُرفةٍ سيِّئةِ الإضاءةِ تستطيعُ منها سماعَ كلِّ أصواتِ الدار. وكما لو كانت مُكلّفةً القيامَ بمهامِّ الشَّرطة، فإنها لم تكنْ تنامُ إلاّ بعينٍ واحدة. كانتْ كالكلبِ الأمينِ تُدافعُ عن كلِّ ما يملكُه سيّدُهاوتفعلُ كلَّ ما يريدُه دون أنْ تشكو. وفي سنة ١٨١١، أعطاها السيد غرانديه ساعتَه القديمة، وهي الشيءُ الوحيدُ الذي تلقّتْهُ منه.

أصبحتْ نانون الطّويلةُ نحيلةً فأحبَّها غرانديه في النِّهايةِ كما يُحبُّ المرءُ كلباً، واعتُبرتْ من الأُسرةِ فكانتْ تضحكُ عندما يضحكُ غرانديه وتحزنُ وتعملُ معه في نفسِ الوقت.
وكانتْ ضحكةُ غرانديه تُسرِّي عن نفسِ الفتاةِ التي عرفتِ التّعاسةَ في صِباها. كان في سومير كثيرٌ من الأُسرِ التي تمنحُ الخادماتِ عنايةً أكبرَ لكنْ دون أنْ يُرضيها ذلك، فتساءلت عمّا يفعلُه آل غرانديه لنانون فتُقابلُه بهذا القدرِ من الطِّيبة.

أُوجيني تبلغ الثالثة والعشرين

في إحدى أُمسياتِ تشرين الثاني عام ١٨١٩، أشعلتْ نانون ناراً قويةً لأولِ مرّةٍ في ذلك الفصل. كان اليومُ يومُ عيدِ ميلادِ أُوجيني، ابنةِ السيدِ غرانديه. في الصَّباحِ تلقّتْ أوجيني من والدِها كعادتِها كلّ سنةٍ مُنذُ سنِّ العاشرةِ قطعةً ذهبيّة. وفي السّاعةِ التّاسعةِ ذهبتِ السيدةُ والآنسة غرانديه مع نانون إلى الكنيسة. وعندما عُدنَ منها بدا السيد غرانديه راضياً لِرُؤيتَهِ ابنتَه ترتدي فُستاناً جديداً، فقال لها: «إنّه عيدُك اليومَ يا أوجيني فلْنُوقدْ ناراً!»

قالتْ نانون:

ـ من المؤكّدِ أنّ الآنسةَ سوف تتزوّجُ هذه السنة.

فأجابتِ السيدة غرانديه:

ـ أنا لا أرى شخصاً يصلحُ لها في سومير.

نظر غرانديه إلى ابنتِه وقال بمرح:

— لقد بلغتِ الطّفلةُ اليومَ الثّالثةَ والعشرين، وقريباً سيكونُ من الضروريِّ الإهتمامُ بأمرِها.

تبادلتْ أُوجيني ووالدتُها النّظرات. كانتِ السيدةُ غرانديه امرأةً جافّة، نحيلةً، صفراءَ الوجه، غليظةَ العظام كبيرةَ الأنفِ والجبهةِ والعينيْن، ذاتَ أسنانٍ سوداءَ نادرة. إنّها سيّدةٌ لطيفةٌ جداً يشفقُ عليها سكّانُ سومير، فزوجُها لا يُعطيها أبداً أكثر من ستّةِ فرنكات دفعةً واحدةً لمصاريفها. عندما اقترنتْ من الأب غرانديه، حملتْ إليه أكثر من ثلاثِ مئةِ ألف فرنك. ومنذُ ذلك الحين، لم تطلبْ منه قرشاً واحداً، ووقّعتْ دون أيِّ سؤالٍ كلَّ الأوراقِ التي قدّمها الكاتبُ العدلُ غريشو. كان غرانديه كثيراً ما يسألُها: «ألَديْكِ بضعةُ قروشٍ تُقرضينَها لي؟» فتُعطيهُ بعضَ المالِ وهي سعيدةٌ لأنّها استطاعتْ أنْ تفعلَ له شيئاً.

بعدَ ذلك العشاءِ الذي تناولَ الحديثُ أثناءَهُ للمرّة الأُولى زواجَ أوجيني، ذهبتْ نانون لإحضارِ زجاجةٍ من النّبيذ الجيّدِ فكادتْ تسقطُ وهي تنزل. وقال لها سيّدُها: «أيّتُهـا الحيوانـةُ الكبيرةُ، أتَتْرُكينَ نفسَكِ تقعينَ كغيرِك؟

— سيدي، إنّها تلك الدّرجةُ من سُلّمِك وهي غيرُ ثابتة.

قالت السيدة غرانديه:

— إنّها مُحِقّة.

وقال غرانديه لنانون:

— خُذي! إشربي قدحاً صغيراً من النّبيذ.

— إنّني أستحقُّهُ، فكثيرٌ من النّاسِ قد يكسرونَ الزّجاجةَ لو كانوا في موقفي، لكنّي كنتُ أفضّلُ أنْ تُكْسَرَ ذراعي وأحتفظَ بها مرفوعةً في الجو.

— مسكينةٌ نانون! حسناً، بما أنّ اليومَ هو يومُ عيدِ ميلادِ أوجيني فسأصلحُ درجتَكِ.

كان غرانديه مُنهمكاً في العملِ عندما قرعَ البابَ ثلاثةٌ من آل غريشو، هم الأبُ العجوزُ غريشو، وأخوهُ الكاتبُ العدلُ وابنُ أخيهِما رئيسُ المحكمةِ الذي كان يُحبُّ أنْ يدعوهُ النّاسُ أيضاً السيد دي بونفون.

صاحَ غرانديه عندما سمعَ أصدقاءَه: «أعذُروني أيّها السادة، سأكونُ عمّا قليلٍ تحتَ تصرّفِكم فأنا أُصلحُ سُلّمي.»

قال غريشو العجوز: «إفعلْ، إفعلْ يا سيد غرانديه» ثم التفتَ نحو أُوجيني وقال لها: «أتسمحينَ لي يا آنستي أنْ أتمنّى لكِ يومَ ميلادِكِ، سلسلةً من السّنواتِ السّعيدة؟.» ثم قدّم لها أزهاراً يندرُ وجودُها في سومير.

وتحدّثَ الرّجالُ عن المحاصيلِ فسأل غريشو العجوز: «هلِ انتهى قطافُكم للعنب؟»

أجاب غرانديه الذي رأى في هذه اللّحظةِ نانون جالسةً في المطبخِ وقد اشعلتِ الضّوءَ: «في كلِّ مكان». ثم وجّهَ الكلامَ إلى نانون:

ــ أطْفئي نارَكِ وضوءَكِ يا نانون من فَضْلِكِ. .

ــ لكنكَ يا سيدي تستقبلُ أُناساً من عليّةِ القوم. . .

ــ أَلَسْتِ مُعادلةً لهم؟

في هذه اللّحظةِ قُرِعَ البابُ مُعلناً قدومَ السيد دي غراسّين وزوجتِه وابنِهما أدولف. قال الأوّلُ لأُوجيني بعد أنْ حيّا السّيّدَةَ غرانديه: أنتِ لا تزالين جميلةً وعاقلةً يا آنستي، وأنا في الحقيقةِ لا أعرفُ ما يمكنُ للمرءِ أنْ يتمنّاهُ لَكِ» ثم قدّمَ لها عُلبةً صغيرةً تحوي زهرةً من جنوبِ أفريقيا. أمّا زوجتُه فعانقتْ أُوجيني وقالتْ لها: «هاكِ ما يقدّمُه لكِ أدولف.

تقدّمَ شابٌّ طويلٌ أشقر، شاحبُ اللّونِ نحوأُوجيني فقبّلها على الخدّيْنِ وقدّم لها عُلبةَ أشغالٍ رخيصةَ الثّمن حُفر على غِطائِها حرفا «أ» و «غ» ممّا يدفعُ إلى الظنّ بأنها غالية.

تطلّعتْ أوجيني إلى والدِها الذي قال لها: «خُذيها يا ابنتي».

عندَ السّاعةِ الثّامنةِ والنصف نُصبتْ طاولتانِ للّعبْ فقالتِ السيدة دي غراسين: «سوف نلعبُ شوطاً يا سيدة غرانديه»

وقال السيد غرانديه: «إنّه عيدُ أُوجيني، فالعبوا وسيلعبُ هذانِ الولدانِ كذلك» ثم أشار إلى ابنتِه وأدولف.

كان كلُّ أصدقاءِ غرانديه يصغونَ على ما يظهر إلى الكاتبِ العدلِ الذي يُضحكهم كلّما لعب، لكنّ الجميعَ كانوا يفكّرونَ بملايين البراميلي العجوز الذي حَدَّثَ نفسَه قائلاً: «إنهّم هنا لمالي، وقد أتوْا للحصولِ على ابنتي، لكنّها ليست لهم.»

ــ في اللّحظةِ التي ربحتْ فيها السيدة غرانديه بعضَ النُّقاط، سُمِعتْ ضجّةٌ شديدةٌ عندَ البابِ جعلتِ النّساءَ يَقْفزنَ عن كراسيهن.

مسافرٌ غيرُ متوقّع

ذهبتْ نانون بصُحبةِ غرانديه لِفتحِ الباب فرأتْ قُربَه رأسَ شاب، ثم دخلَ رجلٌ يحملُ حقيبتيْن كبيرتيْن.

التفتَ غرانديه إلى زوجتِه قائلاً: «دعيني أتحدّثُ إلى السيد»، ثم أغلقَ بابَ الغرفةِ فعاد اللّاعبونَ إلى مواضِعِهم دون أنْ يستأنفوا اللّعب. سألتِ السيّدةُ دي غراسين: أهَو بعضُ سكّان سومير؟

ـ لا، إنّه مُسافر.

ـ لا يُمكنُ أنْ يكونَ قدْ أتى إلاّ من باريس.

ـ قالها الكاتبُ العدلُ ونَظرَ إلى ساعتِهِ الضّخمةِ وتابع:

ـ إنّ عربةَ باريس لا تتأخّر أبداً.

سأل الأب غريشو:

ـ هل هذا السيد شاب؟

وقال رئيسُ المحكمة:

ـ لا يُمكنُ إلاّ أنْ يكونَ من أقربائِكُم.

وقالتِ السيدة غرانديه:

ـ لِنلعبْ، فأنا أخشى أنْ يغضبَ السيد غرانديه.

قال أدولف دي غراسين:

ـ آنستي، إنّه دون شك ابنُ عمِّكِ غرانديه، وهو فتىً جميلٌ سبقَ لي أنْ رأيته في إحدى الحفلاتِ في باريس.

في هذه اللّحظةِ عاد غرانديه إلى القاعةِ يتبعهُ المسافرُ، فقال له الأول:

ـ إجلسْ قُربَ النار.

وقبلَ أنْ يفعل، حيّا الشابُّ الجميعَ فقالتْ له السيدة غرانديه:

ـ إنّك تشعرُ دون شك بالبردِ يا سيدي، وربّما كنتَ آتياً من...

سارَعَ غرانديه إلى القول، وهو يكمل قراءةَ رسالةٍ في يدِه:

ـ إنهنّ النّساء. دَعِي السيد يَستريح.

قالتْ أُوجيني:

ـ لكنّ السيّد يَا والدي قد يكونُ بحاجةٍ لشيء . . .

ـ إنّ له لساناً .

أجابَ الشابُّ وقد تعجّبَ ممّا سمعَه :

ـ أشكُركِ يا ابنةَ عمّي ، فلقد تعشّيْتُ في «تور» .

ففكّرتِ السيّدةُ دي غراسين : «لقد كنتُ واثقةً من أنّه ابن العم» .

استُؤنفَ اللّعبُ لكنّ كلّاً من اللاّعبين لم يستطع أنْ يمتنع عن إلقاءِ نظرةٍ من وقتٍ لآخرَ على القادم الجديد .

كانَتْ أُوجيني بقربه تشمُّ بلذّةٍ رائحةَ شعره ، وبودّها أنْ تلمسَ جلدَ قفّازيْهِ الأبيضَ النّاعم . إنها تُحبُّ رؤيةَ يديْهِ الصّغيرتيْنِ ولونَ وجهِهِ . لقد حرّكَ قلبَها وصولُ ابن عمّها ، وهي التّي تقضي وقتَها في ترتيبِ ملابسِ أبيها في أهدأ بيتٍ في المدينة .

لقد أتى شارل من باريس إلى سومير بناءً لأمرِ والدِهِ كي يقضيَ بضعةَ شهورٍ عند عمّه ، وحملَ معه أجملَ ثيابه وأنعمَها ، ظناً منه أنّه سيلتقي بمئةِ شخصٍ وأنّه سيذهبُ إلى الصّيدِ ويحيا حياةً جميلة .

أخرجَ شارل من جيبِه مِنْديلاً جميلاً صنعتْهُ له سيّدةٌ بمحبّة ، وفي هذه اللّحظةِ دخلت نانون وقالتْ بصوتٍ عالٍ :

ـ سيدتي ، يجبُ أنْ تُعطيَني أغطيةً لسريرِ السيد .

لحقت السيدةُ غرانديه بنانون فتوقّف اللّعب وقال غرانديه دون أنْ يُحوّلَ أنظارَه عن رسالتِه :«هل انتهيتُمْ إذن؟» فأجابتِ السيدةُ دي غراسين التي جلستْ قربَ شارل : «أجل!»



اوجيني وابنُ عمّها العزيز

غادرت أوجيني القاعةَ لتساعدَ أمَّها ونانون، فهي تريدُ أنْ تحضّر بنفسها غرفةَ ابنِ عمّها، وأنْ تجعلَها نظيفةً وجميلةً قدر المستطاع. أوحتْ إلى نانون بفكرةِ تَدْفئةِ السّرير، وأفهمَتْ أمَّها أنّه من الضّروري إشعالُ نارٍ جيدة وطلبت إلى نانون أنْ تُحضر كومةً كبيرةً من الخشب. ثم قالتْ لها:

ـ هاكِ قطعةً ذهبيّةً يا نانون فاذهبي لشراءِ شمعة.

قالتِ السيدة غرانديه:

ـ لكنْ ما الذي سيقولُه والدُك؟:

ـ اشتر أيضاً بعضَ السكّرِ يا نانون.

ـ ووالدُك؟

ـ لن ينتبه إلى ذلك. حسناً، ما الذي تنتظرينَه يا نانون؟ إذهبي فاليومُ عيدي.

في هذه الأثناء أبدتِ السيدةُ دي غراسين اهتماماً بشارل فقالتْ له: «إنّكَ شجاعٌ لِتَرْكِكَ ملذّاتِ العاصمةِ في الشّتاءِ كيْ تسكنَ في سومير. لكن اذا لم تُخفكَ، فسترى أنه لا يزالُ من الممكنِ أنْ يلهوَ المرءُ فيها.»

ثم اقتربتْ منهُ وأخذت تتحدّثُ إليه بصوتٍ خفيض: «إنّ دارَنا هو المكانُ الوحيدُ الذي يلهو فيه المرءُ، فتعالَ لزيارتنا. أمّا إذا بقيتَ عند السيد غرانديه فما الذي سيحلّ بك؟ إنّه لا يفكِّرُ إلاّ بكرومِهِ، وزوجةُ عمِّكَ لا تعرفُ أنْ تقولَ فكرتينِ كما يجب، أمّاابنةُ عمّكِ التي تقضي حياتَها بخياطةِ الملابسِ، فهي قليلةُ الذّكاء لا تُحسنُ التصرّفَ في المجتمع ثم إنهّا لا تملكُ مالاً لتتزوّج.»

كان آل غريشو من جهتِهِمْ يتبادلونَ الحديثَ بصوتٍ مُنخفض.

أخيراً قال أدولف وهو ينظرُ إلى شارل: سيدي، لا أدري ما إذا كنتَ تَذْكُرُني، فقد كنتُ أحضرُ حفلةً راقصةً كُبرى معك.

ـ أجل يا سيدي، أجلْ.

قال الأبُ غرانديه وهو يطوي رسالتَه» أتتكلّمون إذن؟» ثم

نظرَ إلى ابن أخيه وسألَهُ:

ــ أتَشعرُ الآن بالدّفْء؟

ــ نعم يا عمّي العزيز.

ــ حسناً، أين نساؤُنا؟

في هذه اللّحظةِ عادْت أُوجيني والسيّدةُ غرانديه فسألَهُما:

ــ هل كلُّ شيءٍ جاهزٍ في الأعلى؟

ــ نعم يا أبي.

ــ حسناً يا ابن أخي، إذا كنتَ تعِباً فستقُودك نانـون إلى غرفتك إنها ليستْ غرفةً جميلةً، لكنّكَ ستجدُ العُذر لِمزارعي الكرومِ الذينَ لا يملكونَ شرْوى نقيرٍ.

حينئذٍ نهضَ غريشو العجوزُ وقال: لا شكَّ في أنّكَ تريدُ التحدّثَ إلى ابنِ أخيك يا غرانديه، فنحنُ نقـولُ لكَ مسـاءَ الخيرِ إلى الغد.

نهضَ الجميعُ وفي الخارجِ أعطى الأبُ غريشو ذراعَه إلى السيدة دي غراسين وقال لها: إنّه شابٌّ لائقٌ، لذا يجبُ أنْ تتخلّى عن الآنسة غرانديه، فأُوجيني ستكونُ للباريسي، إلاّ إذا كان يحبُّ باريسيّة.

ــ دَعْ عنكَ هذا يا سيدي الأب، فسيعـرفُ هذا الشـابُّ سريعاً أنّ أُوجيني ليستْ مُتوقّدةَ الذّكاء. هل نظرتَ إليها هذا المساء؟ لقد كانتْ صفراءَ كاللّيمونة.

عندئذٍ قال الرّئيسُ بصوتِه الضخـم: «مـن الواضـحِ أنّ السيدَ غرانديه قد أرسلَ ابنَه من باريس إلى هنا كي يُزوِّجَه.

ــ لكنّه لم يأتِ إذن دون إعلامٍ مُسبق.

ــ هذا لا يعني شيئاً، فالرّجلُ يعرفُ كيف يخفي ما يجبُ إخفاؤه.



نهايةُ يومٍ طويل

بعدَ رحيلِ أصدقائه، التفتَ السيدُ غرانديه إلى ابنِ أخيه وقال له: يجبُ أنْ تنام، فالوقتُ متأخّرٌ للحديثِ عمّا أتى بكَ إلى هنا، وسنرى ذلك غداً. إنّنا نفطرُ هنا عند السّاعةِ الثامنة، وعند الظّهرِ نتناولُ فاكهةً وقليلاً من الخبز ونشربُ كوباً من النّبيذِ الأبيض، ثم نتعشّى كالباريسيّين عند الساعةِ الخامسة. هذا هو نظامُنا. واذا أردتَ رؤيةَ المدينةِ فلكَ مُطلقُ الحريّة. لنْ أستطيعَ مُرافقتَكَ دائماً. ربّما قال لكَ النّاسُ هنا إنّي ثَري، فأنا أتركُهم يقولون. لكنّي لا أملكُ قرشاً واحداً وأعملُ في هذه السنّ كعاملٍ فتي. سترى عمّا قريب العناءَ الذي يحبُّه المرءُ في كسبِ قرشٍ واحد. أعطينا الشّمعَ يا نانونَ!

قالتِ السيدةُ غرانديه: «آملُ أنْ تجدَ ما يلزمُكَ.»

ـ لقد أحضرتُ كلَّ حاجيّاتي يا امرأةَ عمّي العزيزة،

فاسْمحي لي أنْ أتمنّى لكِ ولابنةِ عمّي ليلةً سعيدة.

أخذ شارل شمعةً من يديْ نانون فقال له غرانديه: سأدلُّكَ على الطّريق» ثم رأى الجدرانَ الصّفراء فقال في نفسِه: «لِمَ أرسلني والدي إلى هنا؟»

في الطّابق الأولِ تقعُ غرفةُ غرانديه وإلى جانبِها مكتبةُ الذي لا يحقّ لأحدٍ حتى ولا لزوجتِه أنْ يدخلَه، فلديْه وحدَه مفتاحُ هذا المكتب. وعندما تغطُّ نانون في نومِها، ويحرسُ الكلبُ في الفناءِ وتنامُ السيدةُ والآنسةُ غرانديه، يأتي البراميليّ العجوزُ إلى هنا كي ينظرَ إلى ذهبِه. أمّا السيدةُ غرانديه، فإنّها تشغلُ الغرفةَ المجاورةَ لغرفةِ أُوجيني.

قاد الأبُ غرانديه ابنَ أخيه إلى الطّابقِ الثّاني وتمنّى له مساءً سعيداً، ولاحظ أنَّ النّساءَ قد أشعلنَ له النار. وفي هذه اللّحظةِ وصلتْ نانون لتدفئَ سريرَ شارل فقال لها: «هل تظنّونَ أنّ ابنَ أخي امرأة؟»

ـ لكنّ أغطيةَ السّريرِ رطبةٌ يا سيدي وهذا السيدُ ناعمٌ كالمرأة.

ـ إفعلي اذا كانتْ هذه فكرتُكِ لكنْ حاذري النار.

نزل غرانديه وهو يُتمْتم. نظرَ شارل إلى الغرفةِ فرأى ورقَ الجدرانِ الأصفرِ المُزهَّر، والكراسيَّ الخشبيّةَ الصّفراءَ فقال لنانون:

ـ هل أنا في دارِ السيد غرانديه، عُمدةِ سومير السّابق، وشقيقِ السيد غرانديه من باريس؟

ـ أجلْ يا سيدي، إنكَ في دارِ سيّدٍ طيّبٍ وديع، فهل أُساعدُك؟

ـ بطيبةِ خاطر. إبحثي لي في هذه الحقيبةِ عن «الرّوب دي شامبر»

تعجّبتْ نانون لرؤيتِها«الروب دي شامبر» من القماشِ الأصفرِ المُحلّى بأزهارٍ ذهبيّة فسألتْهُ: «هل ستلبسهُ لِتنام؟»

ـ أجلْ.

ـ لكنّكَ إذا وهبتهُ للكنيسةِ يا سيدي فستنقذُ روحك.

دعيني أنام يا نانون وسوف أُرتّبُ حاجاتي غداً. وإذا كان نومي يُعجبكِ كثيراً فسيكونُ باستطاعتك أنْ تُنقذي روحَكِ إذ سأتركُهُ لكِ عند ذهابي.

ـ أتُعطيني إيّاه؟ مساءً سعيداً يا سيدي.

مساءً سعيداً.

قبلَ النّوم فكّر كلٌّ من جهتِهِ، فتساءل شارل: «ما الذي أتيتُ أفعلُه هنا؟» وحدّثتْ أُوجيني نفسَها قائلة: «كم هو لطيفٌ ابنُ عمّي!» أمّا السيدةُ غرانديه فقد أصغتْ إلى زوجِها يذرعُ غرفته جيئةً وذهاباً وفكّرتْ بالعاصفةِ التي سوف تهبُّ على الدّار.

أمّا نانون فقد كانتْ تُردّد: «سوف أحصلُ على ذلكَ الثوب»، وهي تحلُمُ للمرّةِ الأولى في حياتِها بالملابسِ الجميلةِ كما تحلُمُ أُوجيني بالحب.

نظرَ غرانديه إلى بابِ مكتبِهِ وبدا أكثرَ انزعاجاً من أخيهِ في باريس لحظةَ كتابتِه للرّسالةِ التي هي الآن في جيبْه.

رسالة غرانديه من باريس

«أخي: إنّنا لم نرَ بعضنا منذ حوالي ثلاثٍ وعشرينَ سنة. كان ذلك بعدَ زواجي، وقدِ افترقْنَا وكلٌّ منّا راضٍ عن الآخر، ولم أكُنْ أظنُّ آنذاكَ أنّكَ ستكونُ حارسَ الأُسرة. فعندما ستصلُ هذه الرّسالةُ إلى يديْكَ سأكون قَدْ متُّ لأنّني لم أشأْ أنْ أبقى على قيدِ الحياة بعد أنْ خسرتُ كلَّ مالي. كنتُ أظنُّ حتى اللّحظةِ الأخيرةِ أنّني سأتمكّنُ من إنقاذ نفسي، لكنّـي لسوءِ الحظّ لا أزالُ مديناً بما يقربُ من الأربعة ملايين. بعد ثلاثةِ أيّام ستقولُ باريس أنّ السيد غرانديه كان لصاً. إنّني أتركُ اسماً سيّئاً لابني الذي لن يحصلَ على أملاكِ والدتِه. هذا الولدُ الذي أحبهُ أكثرَ من أيِّ شيءٍ في العالم، لا يعرفُ شيئاً من هذا الأمر. لقد ودَّعني وودَّعْتُه بحنان، ولم يعرفْ لِحُسْنِ الحظّ أنّ تلك كانتْ آخرَ لحظاتِ حياتي. قد يأتـي يومٌ لا يريدُ لي فيه

السّوء. إنّكَ أخي يا غرانديه، فاعملْ على ألاّ يَذْكُرَني شارلُ بسوء.

«ها أنتَ إذنْ والدُه، فشارل لم تعدْ له أُسرة. إعتنِ يا أخي بولدي التعيس، فقد كان يحُبُّني كثيراً، وكنتُ طيّباً معه، أفعلُ كلَّ ما يريدُه. سترى أنّه وديعٌ كأمّه. يا للولدِ المسكين! إنّه دونَ مال، وسينصرفُ عنه كلُّ أصدقائِه بسببي.

«أعودُ إلى مُصيبتي ومُصيبتِه. لقد أرسلْتُهُ لكَ لتعلِمَهُ بموتي وتقولُ له ما يجبُ أنْ يفعلَهُ. كُنْ أباً صالحاً له، وأرِه الحياةَ الشاقّةَ التي تنتظرُه. إنّ العملَ الذي أنقذَ كلينا سوفَ يمنحهُ المالَ الذي لم أستطِع أنْ أتركَه له. لذا يجبُ أنْ يرحلَ ويذهبَ إلى الهند. إنّه شجاعٌ يُفضّلُ الموتَ على عدمِ ردِّ ما سيستدينُه منك. «وداعاً يا أخي إنّني أُصلّي من أجلِكَ في العالمِ الذي علينا جميعاً أنْ نذهبَ يوماً إليه والذي حللْتُ به.»

فيكتور آنج غليوم غرانديه.

أوجيني

نهضتْ أُوجيني ككلِّ بناتِ الرّيفِ باكراً فسرَّحَتْ شعرَها بعنايةٍ فائقة، وغسلتْ يديْها فتعجَّبت لشدَّةِ احمرارِها بينما يدا شارل في مُنتهى البياض. لَبِسْت جوربيْنِ جديديْنِ وانتعلتْ أجملَ حذاءٍ لديْها ووجدتْ بعضَ السُّرورِ في انتقاءِ ثوبٍ نضير. وعندما انتهتْ من التزيُّنِ سمعتِ السّاعةَ تدقُّ السّابعة.

عندئذٍ جلستْ قُربَ النّافذةِ ونظرتْ إلى الفناءِ والحديقةِ فوجدتْها جميلةً في ضوءِ الشّمسِ وكأنّها تراها للمرّةِ الأولى. نهضتْ ونظرتْ إلى نفسِها في المرآةِ مُحدِّثةً نفسَها: «لستُ جميلةً بالقدرِ الكافي لشارل، فأنا شديدةُ القُبحِ ولنْ يُعيرَني انتباهاً.»

فتحتْ أُوجيني بابَ غرفتِها وأصغتْ إلى أصواتِ الدّارِ

فعرفتْ أنّ ابنَ عمِّها لم ينهضْ بعد، وسمعتْ نانون تَروحُ وتجيءُ في المطبخِ فتشعلُ نارَها وتكنسُ القاعةَ، أخيراً نزلتْ وطلبتْ إلى الخادمةِ أنْ تُحضرَ شيئاً من القشْدةِ لابنِ عمّها، فأجابتْها:

ـ كانَ عليكِ يا آنستي أنْ تُفكرّي البارحةَ بذلك. أوه إنّ ابنَ عمّكِ لطيفٌ، لطيفٌ. أنتِ لم ترينَه في ثوبِه ذي الزّهورِ الذّهبيّة، أمّا أنا فلقد رأيتُه.

ـ إصْنعي لنا بعضَ «الكاتو» يا نانون.

ـ ومَن الذي سيُعطيني خشباً وطحيناً وزبدةً لطبخه؟ أُطلبي إلى أبيكِ أنْ يُعطيَكِ إيّاها فهو نازل.

فرّتْ أُوجيني إلى الحديقةِ وقد أحزنَها ألاّ تستطيعَ توفيرَ ما تريدُه لابنِ عمّها، فما العمل؟ للمرّةِ الأُولى خافتْ من رؤيةِ أبيها لأنّها تُخفي عنه شيئاً. أخذتْ تمشي بسرعةٍ وقد أسعدَها استنشاقُ الهواءِ المُنعشِ والشّعورُ بدفْءِ الشّمس.

في المطبخِ تحدّثَ غرانديه إلى نانون بصوتٍ قويٍّ فقال:

ـ هل بقيَ شيءٌ من خبزِ البارحة؟

ـ لم تبقَ قطعة واحدة يا سيدي.

أحضرَ غرانديه رغيفاً كبيراً مُستديراً وهَمَّ بتقطيعِه عندما قالتْ له نانون.

. . نحنُ اليومَ خمسةٌ يا سيدي.

ـ هذا صحيحٌ لكنّ الرّغيفَ يزنُ ثلاثةَ كيلوات فسيبقى منه، ثم إنّ شبابَ باريس كما سترينَ لا يأكلونَ خبزاً.

ـ وما الذي يأكلونَه إذن؟

ـ لا شيء، إنهّم كالبناتِ اللّواتي هنّ للزواج.

ـ أعطني إذْن يا سيّدي بعضَ الطّحينِ والزُّبدةِ كي أصنعَ كاتو للأولاد. يلزمُني أيضاً قطعتانِ من السكّر للفطور.

ـ لكنّي لم أركِ أبداً يا نانون في مثلِ هذه الحال! فما الذي يجولُ في رأسِكِ؟ لنْ تحصلي إلاّ على ستِّ قطع.

ـ حسناً وبمَ سيُحلّي ابنُ أخيكِ قَهوتَه؟

ـ بقطعتيْن، فلن أتناولَ أنا سكراً.

ـ أنتَ! وفي سنّك! إنّني أفضّلُ أنْ أشتريَه لكَ من جيبي.

ـ إهتمّي بعملِكِ!»

صاحتْ نانون من النّافذةِ لأُوجيني:

هل تُريدينَ الكاتو يا آنِستي؟

ـ لا، لا!

سمعَ غرانديه جوابَ ابنتِهِ فقال: «إنّي ذاهبٌ لإحضارِ شيءٍ من الطّحينِ والزّبدة. .

ـ سوفَ يلزمُنا بعضَ الخشبِ أيضاً.

ـ حسناً، خُذي حاجَتَكِ.

عادَ غرانديه مُثقلَ اليديْنِ بالثّمارِ فسألَتْهُ نانون: «هل سَيَقْتَضِي الأمرُ إعدادَ صحنيْ لحمٍ في الأُسبوع بسبب. . . ؟

ـ أجلْ.

ـ سأذهبُ إلى الملحمة.

لا، بل ستَطبخينَ دجاجةً من التي سيُعطيكِ إيّاها المُزارِعون.

ولمّا لم يعدْ لديْهِ أمرٌ يُصدرهُ، أخرجَ الأبُ غرانديه ساعتَه فرأى أنّه لا يزالُ أمامَه قليلٌ من الوقتِ قبلَ الإفطار، وتناولَ قبّعتَه قائلاً لابنته: «هل تُريدينَ أنْ تأتي للتنزّهِ على ضفافِ نهر اللوار؟».

أحضرتْ أُوجيني قبّعةَ القشّ ونزلَ الإثنانِ إلى الشّارعِ الصّغير حيثُ سألهُما الكاتبُ العدل: «إلى أينَ أنتُما ذاهبان في هذه السّاعةِ المبكّرةِ؟»

ـ لنرى شيئاً ما، أتأتي معنا؟

في الطّريقِ تحدّثَ غريشو وغرانديه عن النّقودِ والشّجرِ والكُرومِ. وصلوا إلى ضفافِ اللّوار حيثُ يعملُ أكثرُ من ثلاثينَ عاملاً في المروج، مُهيلينَ التّرابَ على الحفرِ التي زُرعتْ فيها أشجارٌ كبيرةٌ، فأمرهُمْ غرانديه ألاّ يغرسوا أشجاراً جديدةً إلاّ عندَ ضفّةِ النّهرِ مُضيفاً: . . . وهكذا ستتغذّى مقابلَ لا شيء»

نظرتْ أُوجيني إلى الحقولِ واقتربتْ من الرجليْن فسمعتْ غريشو يقولُ لأبيها: «حسناً، هل استقدْمتَ صهراً من باريس؟ إنّ سومير كلَّها لا حديثَ لها إلاّ عن ابنِ أخيكِ.

ـ وأنتَ، هل خرجتَ باكراً لتقولَ لي ذلك؟ سأقولُ لكَ ما تودُّ معرفتَه. إنّني أُفضلُ رمْيَ ابنتي في نهر اللوار على إعطائِها لابنِ عمّها.

سمعتْ أُوجيني هذا الكلامَ فخُيِّلَ إليها أنهّا ستقعُ. لقد سبّب لها وصولُ شارل سعادةً كبرى. . إنّ الحالَ أشبهُ

بزهورٍ جميلةٍ تُلقى إلى الأرض. عادتْ وساقاها تكادان تعجزانِ عن حمْلِها، وبدا لها الشّارعُ القديمُ الذي كان منذُ قليلٍ مرحَ المظهر، حزيناً.

في هذه اللّحظةِ فتحَ غريشو الصحيفةَ التي كانت في يدِه فسأله غرانديه:

ـ ما الجديد؟

ـ يا آلهي!

ـ حسناً، ماذا؟

ـ إقرأْ هذا.

«انتحرَ السيد غرانديه، وهو أحد التجّارِ المعروفينَ في باريس، بعد أنْ خسرَ كلَّ أموالهِ بسببِ الأعمالِ غيرِ الموفّقةِ للكاتبِ العدلِ الذي عَهِدَ إليه بها. وكان من الممكنِ إنقاذه إذ كان معروفاً، وكثيرٌ من النّاسِ يُمكنْ أنْ يُقرضوه بعضَ المال.»

قال المُزارعُ العجوز: كنتُ أعرفُ ذلك.»

وابنه الذي كان شديدَ المرحِ بالأمسِ . . .

ـ لم يعرفْ بعد شيئاً.

وصل الكاتبُ العدلُ إلى أمامِ بابِه فقال: «وداعاً يا سيد غرانديه!»

وعاد هذا الأخيرُ إلى دارِه فوجدَ الإفطارَ جاهزاً وعانقتْ أُوجيني أمّهَا كمنْ يشعرُ بألمٍ شديد. قالتْ نانون وهي تنزلُ السلّم: «بوسعكُم أنْ تأكلوا، فالولدُ نائم. كَمْ هو لطيفٌ وعيناهُ مُغمضتان! لقد دخلتُ وناديْتُه فلم يُجبني أحد.»

قال غرانديه: «دَعيه ينام، فسيفيقُ باكراً بما فيه الكفاية ليطّلعَ على أخبارٍ سيئة.»

سألتْ أُوجيني: «ما الأمرُ إذن؟»

لقد قتلَ والدُه نفسَه.

ـ عمّي؟

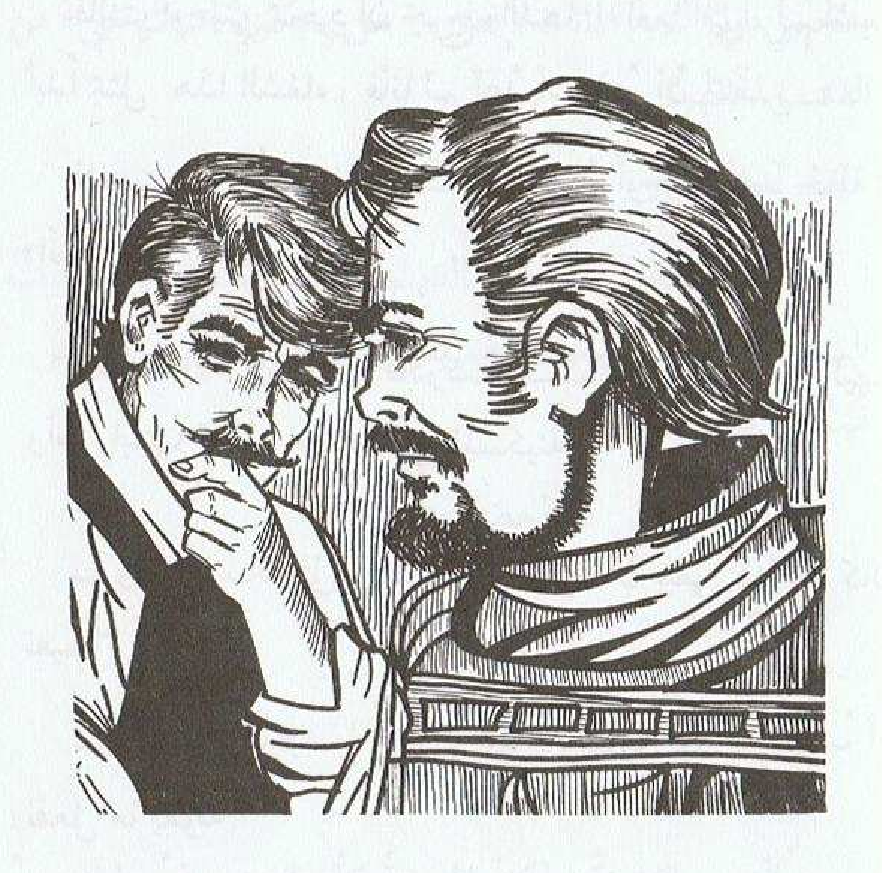
صاحت السيدةُ غرانديه:

يا للشابِّ المسكين!

فأجابَ غرانديه: «أجلْ إنّه مسكينٌ فهو لا يملكُ قرشاً واحداً.»

توقّفتْ أُوجيني عن الأكلِ وانقبضَ قلبُها لشقاءِ مَنْ تُحبّهُ فأخذتْ تبكي.

ـ إنّكِ لم تكوني تعرفينَ عمَّكِ، فلمَ تبكين؟ آه ـ يجبُ أنْ أذهبَ لرؤيةِ أحدِ حقُولي وسأعودُ عندَ الظّهر. لا تُحدّثْنَهُ بشيء. وأنتِ يا أُوجيني، هذا يكفي يا ابنتي. إنه سيرحلُ بسرعةٍ إلى جزرِ الهندِ الكبيرةِ فلا تعودي ترينَه...»



من أجلِ إبنِ العَمّ

قالتْ أُوجيني بمجرّدِ أنْ خرجَ والدُها: «آه يا أُمّي، لم أشْعر أبداً بمثلِ هذا الشقاء، فأنا لم أعدْ أستطيعُ أنْ أتنفّس.»

فتحتِ السيدةُ غرانديه النّافذةَ فقالتْ أُوجيني بعدَ لحظة: «إنّني الآن أحسنُ حالاً»

نظرتِ الأُمُّ إلى ابنتِها فأدركتْ سببَ ألمِها وضمّتْ إليها رأسَ ابنتِها قائلةً: «يا طفلتي المسكينة!»

ـ ولمَ إرسالُه إلى الهند؟ ألاَ يجبُ أنْ يبقى هنا إذا كان تعيساً؟

ـ أجلْ، بالتّأكيد يا ابنتي، لكنّ لأبيك أسبابه فيجبُ أنْ نفعلَ ما يقولُه.

استأنفتِ الإثنتانِ عملَهُما فقبّلتْ أُوجيني يدَ والدتِها

وقالتْ: «كم أنتِ طيّبة» يا والدتي العزيزة! هل تجدينه صالحاً؟

أجابتِ السيدةُ غرانديه بابتسامةٍ ثم قالتْ أخيراً:

ـ أَتُحبّينَهُ إذْن؟ هذا أمرٌ سيّء.

ـ ولمَ يكونُ سيئاً؟ إنّه يُعجبُكِ ويعجبُ نانون، فلمَ لا يعجبُني أنا؟ لنعدَّ المائدةَ لإفطاره. هل سيكونُ لديكِ شيءٌ من القشدة للظهر؟

ـ أجلْ.

ـ حسناً قدّمي له بعضَ القهوةِ القويّة، فلقد سمعتُ السيّد دي غراسين يقول إنهم يُعدّون القهوةَ قويّةً في باريس. ضعي الكثيرَ منها.

ـ وأينَ تُريدينَ أنْ أحصلَ عليها؟

ـ إشتري.

ـ وإذا لَقِيَني سيدي؟

ـ لقد ذهبَ لرؤيةِ حقولِه.

ـ إنّني راكضةٌ، لكنّ المدينةَ كلّها ستعرفُ ما نحنُ فاعلون.

قالتِ السيدةُ غرانديه:

ــ إذا شعرَ والدُكِ بشيءٍ فسيضربُنا.

ــ حسناً، سيضربُنا وسنتلقّى ضرباتِه ونحن راكعون.

أعدّتْ أُوجيني كلَّ شيءٍ لابنِ عمّها، فتركتْ عملَها عشرين مرَّةً كي تشرفَ على القهوةِ أو تُصغي إلى الصّوتِ الذي يُحدثُه عندما ينهض.

أمّا شارل فبعد أن جالَ ألفَ مرة حولَ غرفتِه، نزل أخيراً وقد صرف في إعدادِ نفسهِ نفسَ الوقتِ الذي تَقْضيه امرأة. في الحاديةِ عشرةَ صباحاً دخلَ مسروراً ودنا من السيدةِ غرانديه فسألَهَا: «هل أمضيتِ اللّيلَ بخير يا امرأةَ عمّي العزيزة؟ وأنتِ يا ابنةَ عمّي؟

ــ بخير يا سيدي وأنت؟

ــ أنا؟ بخير.

ــ من المُؤكّد أنّكَ جائعٌ يا ابنَ عمّي فاجلسْ إلى المائدة.

ــ أنا لا أفطرُ عادةً قبلَ الظّهر، لكنّي لم آكلْ جيداً أثناء الطّريق لِذا فسأفعل. لقد نهضتُ اليومَ في ساعةٍ مبكّرةٍ (قالها

وهو ينظرُ إلى ساعتِه). سوفَ آكلُ شيئاً ما، شيئاً قليلاً كحجلٍ صغير...

صاحتْ نانون: «يا إلهي!» وقالتِ السيدةُ غرانديه: «تعالَ واجلسْ»

سأل شارل الذي وجدَ الغرفةَ بشعةً جداً:

ــ أتَعيشونَ دائماً هنا؟

ــ دائماً.

ــ ألاَ تتنزّهونَ أبداً؟

ــ أحياناً، يومَ الأحد؛ فعندما يكون الطّقسُ جميلاً نذهبُ إلى جسرِ نهر اللّوار أو إلى حقولنا.

ــ هل تذهبونَ إلى المسرح؟

ــ إلى المسرح ؟ لكنْ هذا ليسَ حقاً يا سيدي، فلا يجبُ أنْ نفعلَه.

قالتْ نانون: «خُذْ يا سيدي، إليكَ بالبيض»

ــ أوه! بيضٌ طازج، هذا حسنٌ جداً.

ــ أَلديكِ بعضُ الزُّبدة؟

قالتْ نانون: «آه زُبدة!» ثم همستْ في أُذنِ أُوجيني «والكاتو؟» فصاحتْ بها هذه: «أَعْطِنا زُبدةً يا نانون!»

نظرتِ السيدةُ غرانديه وابنتُها إلى شارل وهو يأكل. ومن وقتٍ لآخر، كان يديرُ رأسَه نحوهما، وهو سعيدٌ لشعورِهِ بأنَّهما يتطلّعانِ إليه. قال:

ــ لو ذهبتِ يا ابنةَ عمّي العزيزة إلى المسرحِ في باريس، لتطلّع إليكِ أكثرُ من رَجل.

ــ أُوه يا ابنَ عمّي إنكَ تُريدُ أنْ تسخرَ من ابنةِ الرّيف.

أحضرتْ نانون القهوةَ فسألَها شارل:

ــ ما هذا؟

ــ إنها قهوةٌ فعلية.

ــ آه يا امرأةَ عمّي العزيزة، سوفَ أُعلِّمُكم كيفَ تُعدُّونَ القهوة.

سارعتْ نانون إلى الإجابة:

ــ إذا كان الأمرُ يتطلّبُ وقتاً طويلاً فمن ذا الذي سيهتمُّ ببقرتي عندما أُحضِّرُ القهوة؟

قالتْ أُوجيني: أنا.

صمتتِ النّسوةُ الثّلاثُ وفكّرتْ بالمصيبةِ التي ستنقضُّ على شارل فنظرْنَ بحزنٍ إلى بعضهِنَّ البعض.

ــ ما بكِ يا ابنةَ العم؟

قالت السيدةُ غرانديه لابنتها: صهٍ! أنتِ تعلمينَ أنّ أباكِ سيتحدّثُ إلى السيد.»

أضافتْ نانون: «قُولي شارل»

قالتْ أُوجيني:

ــ آه! إنّكَ تُدعى شارل؟ إسمٌ جميل.

وفي هذه اللّحظةِ قَرِع البابُ مُعلناً وصولَ السيد غرانديه.

النّبأ السّيئ

رفعتْ أُوجيني السكّرَ وحملتْ نانون صحنَ البيضِ ونهضتِ السيدةُ غرانديه وقد تملّكها الخوف. نظر شارل إلى النِّسوةِ الثّلاثِ محُاولاً أنْ يفهم ما يجري وقال: «ما بكنّ؟» فأجابتْ أُوجيني: «هذا أبي.»

ـ حسناً؟

لم يكدْ غرانديه يدخل حتى ألقى نظرةً على المائدةِ ورأى كلَّ شيء، فقال:

ـ آه! لقد أقمتُنّ احتفالاً لابنِ أخي. هذا حسنٌ، حسنٌ جداً.

سأل شارل مُتعجباً: «احتفال!»

ـ أعطيني قدحاً يا نانون.

وضعَ غرانديه قليلاً من الزُّبدةِ على قطعةٍ من الخبزِ وبدأ

يأكلُ واقفاً. حلّى شارل قهوتَه فتقدّمَ غرانديه عندئذٍ وسأل زوجتَه: «من أينَ أخذتُنّ كلَّ هذا السكّر؟»

ـ لقد ذهبتْ نانون فأحضرتْهُ من عندِ السَّمّان.

تناولَ شارل بعضَ القهوةِ فلم يجدْها حُلوةً بالقدرِ الكافي.

ـ ما الذي تُريدُه يا ابنَ أخي؟

ـ بعضَ السكّر.

ـ ضَعْ شيئاً من الحليبِ تُصبحُ قهوتُكَ أكثر حَلاوةً.

لكنّ أُوجيني ذهبتْ فأحضرتِ السكّرَ الذي كانتْ نانون قد خبّأتْهُ، ونظرتْ إلى أبيها بهدوء، ثم قدّمتْ إليه عناقيدَ عنب قائلة: «خُذْ يا أبي، وأنتَ يا ابنَ عمّي. كُلْ منها فلقد ذهبتُ بنفسي لإحضارِها لك.»

ـ أوه! إذا لم يوقفهنّ أحدٌ، فسيشترينَ كلَّ ما في سومير من أجلِكَ. عندما تنتهي يا ابنَ أخي، ستكونُ لديَّ أشياءُ غيرُ حلوةٍ أقولُها لك.

ـ ما معنى ذلك يا عمّي؟ مُنْذُ موتِ والدتي المسكينة..

أضافتِ السيدةُ غرانديه:

ـ مَنِ الذي يمكنُ يا ابنَ أخي أنْ يعرفَ ما قد يحصلُ لنا؟.

عندئذٍ قال غرانديه وهو يفتحُ البابَ: «تعالَ». فقالتْ أُوجيني بصوتٍ خفيض: «تشجّع يا ابنَ عمّي!»

سار غرانديه وابنُ أخيهِ دون أنْ يقولا شيئاً أوّلَ الأمر. نظر شارل إلى النّباتِ وأسوارِ الحديقةِ، فقال له عمُّه: «ألطّقس جميلٌ ودافىء.»

ـ أجلْ يا عمّي، لكنْ لماذا. . .

ـ حسناً يا ولدي. لديّ أخبارٌ سيّئةٌ أُعلمُكَ بها. إنّ والدَكَ في حالةٍ سيّئةٍ للغاية.

ـ لماذا أنا هنا إذن؟ نانون، أعدّوا لي جياداً.

ـ إنّ الجيادَ عديمةُ النّفع. أجلْ لقد فهمتْ، فوالدُكَ قد مات. لقد انتحرَ بطلقةِ مُسدّس.

ـ والدي؟

ـ نعم. خُذْ واقرأْ.

أخذَ شارل يبكي فقالَ له غرانديه: وهذا أيضاً ليس بالأمرِ الهامّ إذ لم يعدْ لديكَ مالٌ يا ابنَ أخي المسكين.

ـ ما الذي يَهُمُّني من هذا؟ أينَ والدي؟

لم يُصغِ شارل إلى عمّه بل صعد إلى غرفته فأسندَ رأسه إلى السّرير وبكى كالأطفال.

قال غرانديه وهو يعودُ إلى الغرفةِ التي تركَ فيها زوجتَه وابنتَه: «هذا الشابُّ لا يصلحُ لشيء، فهو يهتمُّ بالموتى أكثرَ ممّا يهتمُّ بالمال.» وعندما سمعتْ أُوجيني كلامَ أبيها، بدأتْ تحكمُ عليه.

بكى شارل موتَ أبيه كلَّ المساء، فقالتِ السيدةُ غرانديه «يا للشّابِ المسكين!» أمّا السيد غرانديه فلقد نظرَ إلى زوجتِه ثم إلى الطّاولةِ التي فوقَها السكّر ولم يتمالكْ نفسَه من أنْ يقول: «آملُ ألاّ تستمرَّ الأُمورُ هكذا فأنا لا أُعطي مالي لإطعامِ ابنِ العمِّ هذا».

ـ ليس لأمي دخلٌ في هذا، فأنا التي. . .

ـ ألأنّكِ بلغتِ الثّالثةَ والعشرينَ تُريدينَ إغضابي؟

ـ إنّ ابنَ أخيكَ يا أبي لا يجبُ أنْ ينقصه شيءٌ في دارِك. . .

ـ إنّ شارل ليس شيئاً بالنّسبةِ لنا فهو لا يملكُ قرشاً واحداً وأبوه كذلك. وعندما ينتهي من البكاءِ، سيرحلُ من هنا.

ـ وأنتَ يا والدي، ألم تستطعْ منعَ هذه المصيبة؟

ـ لم يطلبْ أخي منّي شيئاً وهو مدينٌ بأربعةِ ملايين.

سألتْ أُوجيني:

— وما هو المليون؟

— المليون؟ إنّه مليونٌ من القطعِ ذاتِ العشرينَ فلْساً.

— يا الهي! يا إلهي! كيف كان لعمّي أربعةُ ملايين؟ هل في فرنسا شخص آخر بوسعِهِ امتلاكَ هذا القدرَ من الملايين؟ (في هذه اللّحظةِ مرّ غرانديه بيدِه على وجهِه وهو يبتسم) لكنْ ما الذي ستؤولُ إليه حالُ ابنُ عمّي شارل؟

— سوفَ يرحلُ إلى جزرِ الهندِ الكبرى.

— لكنْ هل لديه المالُ للرّحيل إلى هناك؟

— سوفَ أدفعُ له تكاليفَ الرحلة. . حتّى. . أجل حتى نانت.

قالتْ أُوجيني وهي تُعانقُ أباها:

— آه يا والدي! إنكَ طيّبٌ.

في هذه اللّحظةِ سُمِعَتْ صرخةٌ صادرةٌ من أعلى الـدّار، فقال غرانديه: «إذهبي يا نانون وانظُري ما إذا كان ينتحر» ثم التفتَ إلى المرأتيْن قائلاً: أمّا أنتما فالزما الهدوءَ إذ لديَّ عملٌ في الخارج.»

ثم غادرَ الأبُ غرانديه الدّار.

حزنُ شارل العميق

قالتْ نانون وهي تنزل: «إنه لم يرَني، فهو على سريرِهِ يبكي ويبكي. أيّ ألمٍ أصابَ هذا الشابَّ اللّطيفَ المسكين!»

— لِنذْهَبْ فنُنسيهِ تعاستَهُ، وإذا قُرِعَ البابُ فسوفَ ننزل.

صعدتْ أُوجيني ووالدتُها خافقتيْ القلبِ إلى غرفةِ السيد شارل. كانَ البابُ مفتوحاً وشارل يبكي فقالت أُوجيني بصوتٍ مُنخفض وهي تنظرُ إليه: «كم يحبُّ والدَه!»

— حاذِري يا ابنتي فستحبّينَه.

— أُحبُّه! آه لو تعلمينَ ما قاله والدي للسيد غريشو!

التفتَ شارل فقال لامرأةِ عمّهِ ولابنتِها: «لقد فقدتُ والدي، والدي المسكين! لو حدّثني فقط بمصيبتِه، لأمكننا أنْ نعملَ نحنُ الاثنين! يا إلهي! لقد كنتُ أظنُّ أنّي سأرى والدي الطيّبَ ثانيةً. أظنُّ أنّني لم أُحسنْ عناقَه عندَ رحا !»

ثم عاودا البكاءَ فقالتِ السيدةُ غراندِيه: «سوفَ نُصلي لأجله».

ـ تشجّعْ يا ابنَ عمي.

ـ دَعيني يا ابنةَ عمّي، دَعيني!

شعرتِ السيدةُ غرانديه وابنتُها بألمِ شارلَ العميقِ فتركتَاهُ لوحدِه وعادتا إلى مكانِهما في القاعةِ فبدأتَا تعملانِ بصمت. في حوالَيْ الرّابعةِ قَرعَ البابُ مُعلناً قدومَ غرانديه. كانَ يبدو راضياً ولم يستطعْ أنْ يمنعَ نفسهُ من القول: «لقد نجحتُ يا زوجتي ببيعِ كلِّ محصولي بثمنٍ طيّبٍ دُفع لي ذهباً. بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ لن يحتفظَ النبيذُ بسعرِه. خُذي هذه اللّيراتِ الذهبيّةِ الستّ، فهيَ لَكِ.

ـ لقد ربحتَ يا والدي مئتيْ ألف قطعةٍ من ذاتِ العشرينَ فلساً.

ـ نعم يا آنسة غرانديه.

ـ حسناً يا والدي، باستطاعتِكَ أنْ تُنقذَ شارل بسهولة.

ـ آه! لقد ساءتِ الحالُ منذُ أنْ وطئتْ قدمُه أرضَ هذه الدار. أنا لا أتلقّى درساً لا من ابنتي ولا من زوجتي. وأنتِ يا

أُوجيني كُفّي عن التحدّثِ إليّ بشأنِه وإلاّ... أينَ هو اذن؟ هل نزل؟

ـ كلاّ يا والدي.

ـ حسناً، ما الذي يفعلُه؟

قالتْ أُوجيني:

ـ إنّه يبكي والدَه.

نظرَ غرانديه إلى ابنتِه ودارَ حولَ الغرفةِ مرّةً أو مرّتينِ ثم صعدَ إلى مكتبه لِيُعدَّ مالَه. لم يعدْ شارل ساعةَ الأكلِ فسألَ غرانديه:

ـ أين ابنُ أخي؟

ـ يقولُ إنّه لا يريدُ الأكل.

ـ هذا يعني «مالٌ موفّر». إنّه لن يبكي إلى الأبد.

تناولوا العشاءَ دون أنْ ينطقوا بكلمة، وكانتِ الأمسيةُ شبيهة بالكثيراتِ من مثيلاتِها. عملتْ أُوجيني ووالدتُها دون أنْ ترفعا رأسيْهما. وبقيَ غرانديه يفكّرُ طيلةَ أربعِ ساعاتٍ بكلِّ المالِ الذي سيحصلُ عليه. لم يأتِ أحدٌ إلى داره في ذلك اليوم، لكنّ جميعَ سكّانِ سومير كانوا يتحدّثونَ عن بَيْع

محصولِ الأبِ غرانديه. أخيراً قال هذا الأخير: «لِننمْ! سأذهبُ فأتمنّى باسمِ الجميع مساءً سعيداً لابنِ أخي وأرى ما إذا كان يُريدُ شيئاً.»

بقيتْ أُوجيني ووالدتُها أمامَ بابِ غرفتِهنّ لِتَسْمَعا ما سيقولُه غرانديه. «حسناً يا ابنُ أخي، إنك تتألّمُ. . ما بِكَ. إنّ الأبَ هو الأبُ. إنّني أهتمُّ بِكَ بينما تبكي فأنا قريبٌ صالحٌ كما ترى. تشجّعْ! أتريدُ شربَ قدحٍ صغيرٍ من النّبيذ؟ إنّ النّبيذَ لا يكلّفُ شيئاً فيَ سومير. لكنّكَ بدونِ ضوء. ماذا! مَنِ الذي اشترى هذه الشمعة؟

سمعتِ الأمُّ وابنتُها هذه الكلماتِ فعادتا إلى غرفتِهما وبعدَ قليلٍ ذهب السيد غرانديه إلى غرفةِ زوجتِه فقال لها:

ـ ألديكِ إذن نقودٌ كثيرةٌ يا سيدة غرانديه؟

ـ إنتظرْ فأنا أُصلّي.

ـ هل انتهيتِ يا سيّدةَ غرانديه؟

ـ إنّني أُصلي من أجلِكَ.

ـ حسنٌ، مساءً سعيداً. وسنتحدّثُ غداً صباحاً.

نامتِ المرأةُ المسكينةُ كالطّفل، وبعدَ قليلٍ اقتربتْ منها أُوجيني وقبّلتْها قائلةً.

ـ أتسمعينَ يا أُمّاه؟

ـ ماذا؟

ـ إنّه لا يزالُ يبكي.

ـ إذْهبي للنّومِ يا ابنتي فستُصابينَ بالبرد.

وهكذا انتهى ذلك اليومُ الذي سيكونُ له أثرٌ بالغٌ في حياةِ أُوجيني.



مُوَاسَاةُ شَارل

في اللّيلِ ، استيقظتْ أُوجيني مرّاتٍ عديدةٍ ظناً منها أنهّا قد سمعتْ ابنَ عمّها يتنفّس بقوّة. كانتْ تراهُ تارةً وقد قضى حُزناً وتارةً أُخرى قد مات جوعاً. ومع الصباحِ سمعتْ صراخاً، فارتدتْ ثيابهَا بسرعةٍ ووصلتْ بخطى خفيفةٍ إلى قربِ غرفةِ ابنِ عمّها الذي تركَ البابَ مفتوحاً. لقد نامَ بكلِّ ملابسِهِ وهو جالسٌ على كرسي ، مُسنداً رأسَه إلى السرير. عندئذٍ بكتْ أُوجيني وهي تنظرُ إلى ذلكَ الوجهِ الجميلِ المُتعب. فتحَ شارل عينيْهِ وكأنّه شعرَ بأنَّ صديقاً بجوارِه فقال: «معذرةً يا ابنةَ عمّي.»

لقد ظننّا أنّكَ بحاجةٍ إلى شيءٍ ما. يجبُ أنْ تتمدّدَ في سريرِك.

ـ هذا صحيح.

فرّتْ أُوجيني مزعوجةً لكنّها كانتْ سعيدةً لقدومِها. وفي غرفتها لم تستطعِ الوقوفَ على قدميْها فتساءلتْ عمّا سيفكِّرُ به شارل: «سيظُن أنّني أُحبّه.

بعدَ ساعةٍ دخلتْ أُوجيني إلى غرفةِ أُمِّها وألبستْها ثيابها كالعادة. ثم اتّخذَتا مكانهما أمامَ النّافذةِ بانتظارِ الأب غرانديه الذي ما لبثَ أنْ نزَل دونَ أنْ يبدو عليه أنّه يذكرُ ما حدث بالأمسِ.

ـ كيفَ أصبحَ ابنُ أخي؟

أجابتْ نانون:

ـ إنّه نائمٌ يا سيدي.

ـ هذا أفضل، فهكذا لن يحتاجَ إلى شمعة.

تناولَ غرانديه قبّعتَه وقال: «إنّني ذاهبٌ إلى السّاحةِ للقاءِ أصدقائنا من آل غريشو»

كانتْ أُوجيني سعيدةً لاستطاعتِها أنْ تهتمَّ بابنِ عمّها اللّطيف فذهبتْ ثلاثَ أو أربع مرّاتٍ كي ترى ما إذا كان نائماً أمْ مُستيقظاً. وعندما نهض، كانتْ قد أعدّتْ له كلَّ شيء.

ـ يا ابنَ عمّي.

ـ نعم يا ابنةَ عمّي.

ـ هل تريدُ أنْ تفطرَ في القاعةِ أمْ في غرفتِكَ؟

ـ حيثُ تشائين.

ـ كيفَ تجدُ نفسكَ؟

ـ إنّني خجلٌ يا ابنةَ عمّي العزيزة لشعوري بالجوع.

ـ حسناً فسنحملُ إليكَ طعامكَ في غُرفتِكَ كيْلا نُغضبَ والدي.

صعدتْ أُوجيني السّلالمَ ونزلَتْها عدّةَ مرّاتٍ، وكانتْ تبدو أكثرَ إشراقاً وشباباً في هذا اليوم. ذهبتْ مع أُمّها إلى غرفةِ شارل التي رتّبتْها نانون فوضعتْ أُوجيني بعنايةٍ كلَّ ما يخصُّ ابنَ عمّها. وسعِدَ شارل لرؤيتِه امرأةَ عمِّه وابنتِها تهتمّانِ في مصيبتِه. ففي باريس كان من المؤكّد أنّ أصدقاءَه سيتركونهُ لوحدِه. لذا عندما قدّمتْ إليه أُوجيني فنجاناً كبيراً من القهوةِ دمعتْ عيناهُ فأخذَ يدَها وقبّلها.

ـ ما بكَ أيضاً؟

ـ أوه! إنّها دموعٌ تقولُ لكِ: شكراً.

التفتتْ أُوجيني نحو الموقدةِ وأصدرتْ أمراً لنانون. وعندما نظرتْ إلى ابنِ عمّها بعد برهةٍ كانت لا تزالُ محمرّةَ الوجهِ تحاولُ إخفاءَ ما اعتملَ في قلبِها من سرور. لكنّ شارل قرأ كلَّ ذلك في عينيْ ابنة عمّه.

قُرع البابُ، فعادتِ المرأتانِ إلى مكانِهما، تمكّنتا من استئنافِ عملِهما أمامَ النّافذةِ قبلَ وصولِ غرانديه الذي تغدّى بسرعةٍ واستقبلَ أحدَ حرّاسِ أراضيه الذي حملَ إليه طيوراً وأسماكاً فسأله:

ـ أيصلحُ هذا للأكل؟

ـ أجلْ يا سيدي.

ـ خُذي هذا يا نانون فسوفَ يأتي آل غريشو لِتناولِ الطّعامَ معنا هذا المساء.

ـ لكنْ أينَ سأجدُ ما يلزمُ لطهيِها؟

ـ أعطي يا زوجتي ستّةَ فرنكاتٍ لنانون وذكّريني بالذّهابِ إلى القبوِ لإحضار نبيذٍ جيّد.

عندئذٍ قال الحارس:

ــ يا سيد غرانديه، يا سيد غرانديه.

ــ أعرفُ أنّكَ تريدُ مالاً، وسنرى ذلك غداً لأنّني اليوم في عجلةٍ من أمري. بانتظار ذلك أعطيهِ يا زوجتي مئة فلس.

سعدتِ السيدةُ غرانديه لحصولِها على السّلامِ مُقابلَ بضعةِ فرنكاتٍ، فهي تعرفُ أنّ زوجها لن يسكتَ إلاّ بعد أنْ يستعيدَ منها قطعةً قطعة كلَّ ما قد أعطاها من نقود.



غرانديه أفضلُ رجلِ أعمال

حواليْ السّاعةِ الرابعة، كان كلُّ شيءٍ مُعدّاً للعشاء، فدخل شارل إلى القاعةِ، شاحبَ الخدّيْنِ وانتحى في إحدى الزّوايا دون أنْ ينطقَ بكلمةٍ وهو ينظرُ من وقتٍ لآخر إلى أوجيني نظراتٍ لطيفةً ممّا جعلها تظنُّ أنّ المصيبةَ هي التي قرّبته منها.

عندَ الساعةِ الخامسةِ وصلَ آل غريشو وقد ارتدوا أجملَ ثيابِهم. أكلَ الجميعُ جيداً دون إفراطٍ في الكلام، وقبل أنْ ينتهوا من تناولِ الطّعامِ بقليل، نهضَ شارل وقال بصوتٍ مُرتفع: «إسمحوا لي أنْ أعودَ إلى غرفتي فعليَّ أنْ أكتبَ بعضَ الرّسائل.»

ــ إفعلْ ما تريدُ يا ابنَ أخي.

التفتَ غرانديه إلى زوجته قائلاً: «لن تفهمي شيئاً مما

سنقولُه يا سيدة غرانديه، فعليكِ إذنْ أنْ تذهبي للنّوم. وأنتِ كذلك يا ابنتي. ليلةً سعيدة.»

قبّلَ أُوجيني وغادرتِ المرأتانِ القاعة.

بدأ غرانديه حديثَه فقال: «سيّـ. . . دي الـرّ. . . ئيس، كنتَ تقول. .» وتبعَ ذلكَ نقاشٌ مع آل غريشو تحدّث فيه غرانديه ببطءٍ وهو يُتأتىءُ كي يُنهي جُملَهُ، فقال إنّـه مزارعُ كرومٍ فقيرٌ لا يفقهُ من أمورِ الأعمالِ شيئاً، وإنّـه يسكنُ في سومير لا في باريس.

عندئذٍ التفتَ الرّئيسُ نحوهَ قائلاً: الأمرُ لا يستحقُّ أنْ تزعجَ نفسَك، فسأذهبُ انا إلى باريس وأهتمُّ بكلِّ أعمالِكَ ولن تدفعَ لي سوى أُجرةِ السفر.»

بعد قليلٍ قُرعَ البابُ إيذاناً بوصولِ عائلةِ دي غراسين فاقتربَ الكاتبُ العدلُ من ابنِ أخيه وأسرّ إليه ببضع كلماتٍ: «حسناً، لقد ظهرتَ بما فيه الكفاية. إنّكَ تريدُ الحصولَ على الفتاة، وهو أمرٌ ظاهرٌ أكثرَ ممّا ينبغي فدعْني الآن أتصرّف.» ثم قطعَ كلامَه لحظةَ أنْ قال دي غراسين: «لقد علمْنا يا غرانديه بالمصيبةِ الكبيرةِ التي حلّت بأُسرتك.»

ــ ليستْ هناك مصيبةٌ سوى موتِ أخي. فصديقُنا القديمُ سيُسوّي القضيةَ الماليّة. إنّه ذاهبٌ إلى باريس. . .

نظرَ آل دي غراسين إلى غرانديه الذي هزّ برأسِـه مُوافقاً وتعجّبوا. التفتَ صاحبُ المصرفِ نحو زَوجتِهِ وقال: آه! لقد كنتُ أعرفُ ذلكَ جيداً فغرانديه لا يريدُ تلطيخَ اسمِـه. هذا حسنٌ، وحسنٌ جداً يا غرانديه. لكنْ عليَّ أنْ أذهبَ قريباً إلى باريس إذا أردتَ أنْ اهتمَّ بذلك.»

أجلْ، ربما أمكننا. . لأنّ الرّئيسَ كما ترى يطلبُ منّي أجرةَ السّفر. .

قالتِ السيدةُ دي غراسين: «لكنّ الذهابَ إلى باريس مُتعة، وأنا مستعدةٌ للدّفعِ في سبيلِ الذّهابِ إليها.»

عندئذٍ اقتربَ غرانديه من صاحبِ المصرفِ فانتحى به زاويةً من القاعةِ وقال له بصوتٍ خفيض: «أُفضّلُ أنْ تهتمَّ أنتَ بهذه القضيّة. ثم إنّ لديّ بعضَ المالِ للتّوظيفِ ويمكنُكَ أنْ تتدبّر أمرَه. لكنْ لا تُقل شيئاً لآلِ غريشو.»

قال دي غراسين بصوتٍ مرتفع:

ــ إتّفقْنا. سأسافرُ غداً وسآتي لرؤيتِك في. . في أيّةِ ساعة؟

أجابَ غرانديه وهو يفركُ يديْه:

ــ عندَ السّاعةِ الخامسةِ، قبلَ العشاء.

قال دي غراسين:

ــ إنّه لأمرٌ حسنٌ أنْ يكون للمرءِ أهلٌ مثلُك.

ــ أجلْ، أجلْ. إنّي قريبٌ صالح. لقد كنتُ أُحبُّ أخي وسأُظهرُ ذلك اذا لم يكلّفني كثيراً. . .

ــ سنترُكُكَ يا سيد غرانديه، اذا كان عليّ أنْ أرحلَ غداً في ساعةٍ مبكرة.

خرجَ آل غريشو وآل دي غراسين معاً من دار غرانديه وافترقوا بعد قليل.

قال دي غراسين الابنُ لوالديْه: «لا يبدو عليهم أنّهم راضون.»

ــ صَهْ يا ولدي فلا يزالُ باستطاعتهم أن يسمعونا.

ومن جهةٍ قال غريشو العجوزُ لابنِ اخيه: «لم يكنِ الحظّ إلى جانبنا، لكنْ دَعْهُمْ يفعلون، فلم يقل الأبُ غرانديه سوى

هذه العبارة: سنرى. . إلزمِ الهدوءَ يا صغيري فستكونُ أُوجيني زوجتَك.



المَالُ والحبُّ

لم يكدِ البابُ يُغلق حتى نادى الأبُ غراندِيه نانون: «أُتركي الكلبَ مربوطاً ولا تَنامي، فلديْنا عملٌ معاً. إنّ كونوايِيّه سيأتي ليأخذَني عند الساعةِ الحادية عشرة، فلا تَدعيه يطرقُ البابَ وأدْخليه. أمّا الآن فانتظريني»

سمعت نانون سيّدَها يروحُ ويأتي بهدوءٍ كي لا يُوقظَ زوجتَه وابنتَه او ابنَ أخيه.

خُيِّلَ لأُوجيني أنها سمعَت ابنَ عمّها يصيحُ فنهضَتْ مُسرعةً وفتحتِ البابَ بلطف، فرأتْ نوراً في السلّمِ وتساءلتْ عمّا يحدُثْ.

هبطتْ أُوجيني بضعَ درجات. كان والدُها ونانون يحملانِ على أكتافِهما عصاً غليظةً ربُطَ في وسطِها برميلٌ صغيرٌ، كتلكَ التي يلهو غراندِيه بِصُنْعِها. كان كورنوايِيه ينظرُ إلى ما يفعلانِه. قالتْ نانون: «سيّدي، إنّه ثقيلٌ فكم يزن؟»

ـ لسوءِ الحظِّ ليستْ سوى قروشٍ كبيرة، **لا قطع ذهبيّة**. هل أخذتَ أسلحتَك يا كورنوايّيه؟

ـ كلا يا سيدي. هل أنتَ خائف؟

ـ لا.

ـ ثم إنّنا سنُسرعُ يا سيدي ولقدِ اخترنا أفضلَ الجياد.

ـ حسنٌ، حسنٌ. أَلَمْ تقُلْ لأحدٍ إلى أينَ أنا ذاهب؟

ـ لم أكنْ أعلم.

ـ حسنٌ، وهل العربةُ متينة؟

ـ وكم تزنُ براميلُك إذن؟

ـ أوه، قُرابةَ ١٨٠٠ كيلو.

ـ أتريدينَ أنْ تسكُتي يا نانون! حسنٌ، قُولي لزوجتي إنّني قد ذهبتُ إلى الرّيفِ وسأعودُ للعشاءِ. لِنرحلْ يا كورنوايّيه. . فيجب أنْ نكونَ في أنجرس قبلَ السّاعة التاسعة.

وهكذا رحلَ الأبُ غراندِيه في قلبِ اللّيلِ. لماذا؟ لقد علِم

أنّ اشغالاً كبيرةً قد بُدِىءَ بها في نانت وانّ سعرَ الذهبِ قد تضاعفَ في بضعةِ أيّام، ففكّر أنّ الوقتَ مُناسبٌ لبيعِ ذَهبِهِ، وقادَهُ كورنوابيه بجيادٍ مُستعارةٍ إلى انجرس. . .

عاد السكونُ إلى الدّارِ فأرادتْ أُوجيني أنْ تذهبَ لرؤيةِ ابنِ عمّها قبلَ النوم. كان شارل يرقدُ على كرسي وقد تدلّتْ رأسُه إلى الخارج، أمّا يدُه التي سقطتْ منها الرّيشةُ فكانتْ تكادُ تُلامسُ الأرضَ. قالتْ أُوجيني لنفسِها وهي ترى قرابةَ العشرِ رسائلَ على الطّاولة: «من الضرّوريِّ أنّه تعبٌ جداً.» ثم أخذت إحدى تلكَ الرّسائلِ التي لا تزالُ مفتوحةً وقرأتْ منها بضعَ كلمات:

«عزيزتي أنيت، لم يكُنْ لِيفرِّقنا شيء. . لكنّ والدي قد انتحر. . ولم يعدْ لي أهلٌ ولا مال. . . لم أعُدْ أملكُ حتى مئة فرنك للذّهاب إلى الهند. . سأذهبُ كبحّار. . . لقد هرمتُ كثيراً في أربع وعشرينَ ساعة. . لذا فانّنا نفترقُ اليومَ إلى الابد. . إحتفظي في أعماقِ نفسِك كما سأحتفظُ انا بذكرى تلكَ السّنينَ الأربعة من السّعادة. . لقد وجدتُ هنا في سومير وعندَ عمّي ابنةَ عمٍّ يُعجبكَ وجهُها وعقلُها وقلبُها. .»

هنا توقّفتِ الرسالةُ فقالتْ أُوجيني لنفسها: «كان تعباً جداً بالتّأكيد» ثم نظرتْ إلى ابنِ عمّها النّائم وقرأتْ رسالةً أُخرى:

«عزيزي الفونس. في اللّحظةِ التي ستقرأُ فيها هذه الرّسالة لن يعودَ لي أصدقاء، لكنّي لا أقصدُكَ أنتَ بهذا الكلام. . أُكلِّفكَ بتسويةِ أعمالي. لم أعدْ أملكُ شيئاً وسأرحلُ إلى الهند. . . لقدكتبتُ منذُ قليل إلى كلّ الذين أعتقدُ أنّني مدينٌ لهم ببعضِ المال. أعتقدُ أنّكَ اذا بعتَ مفروشاتي وعرباتي وجيادي، فستتمكّنُ من أنْ تدفعَ للجميع. . أرسلْ لي أسلحتي فقط. . إحتفظ بجواديَ القديمِ الطيّب بريتّون. . .»

قالتْ أُوجيني وهي تتركُ الرّسالةَ وتفرّ إلى غرفتِها بخطى صغيرة! «يا لابنِ العمّ العزيز!» وفي غرفتِها فتحتْ خافقةَ القلب خزانةً قديمةً أخذتْ منها القطعَ النّقديّةَ التي يُعطيها إيّاها والدُها فرأتْ أنّها تُشكلُ مبلغاً كبيراً من المالِ وسُرّتْ لذلك.

وهكذا أحصى كلَّ ثروتِه في اليومِ نفسه: قامَ الأبُ غرانديه بذلك كي يذهبَ إلى نانت ويبيعَ ذهبَه، وفعلتْه أُوجيني لإرضاءِ ابنِ عمّها. صعدتْ مُجدداً إلى غرفتِه ونقودُها في

يدِها، لكنّه أفاقَ لحظةَ وصولِها إلى البابِ فنظرَ إليها مُتعجباً. قالت:

ــ عليَّ يا ابنَ عمّي أنْ اطلبَ منكَ المعذرةَ لخطأ..

ــ وما هو إذن؟

ــ لقد قرأتُ هاتيْنِ الرسالتين. أمّا كيف حدثَ ذلكَ ولماذا صعدتُ فإنّني لم أعدْ أدري. إنّني مسرورةٌ لقراءتي لهما لأنّهما جعلتاني أعرفُ قلبَك وروحَك و...

قال شارل وقدِ احمرّ وجهُه:

ــ وماذا؟

ــ وما تنوي عملَه.؟

ــ يا ابنةَ عمّي العزيزة...

صَهْ! يا ابنَ عمّي، صَهْ! لا تتكلّم بمثلِ هذا الصّوتِ المُرتفع كي لا نوقظَ أحداً. هاكَ كلَّ ما أملكُ من نقودٍ فخُذْه. حتى هذا الصباح لم أكن أعرفُ ما هو المالُ فعلّمني ذلك أنّ ابن العمّ هو أخٌ تقريباً. فبوسعِكَ أنْ تأخذَ كيسَ نقودِ أُختك.»

ولّما لم يقلْ شارل شيئاً، سألتْهُ أُوجيني: «حسناً، ألا تريد؟» ولإدراكِها أنَّ هذا ضروريٌّ لابنِ عمّها، ركعتْ أُوجيني قائلة: «لن انهضَ قبل أنْ تأخذَ هذا الذّهبَ. أجِبْ يا ابنَ عمّي... بكى شارل فوضعتْ قطعَ النقّودِ على الطّاولة.

«حسناً، إنّكَ مُوافقٌ أليسَ كذلك؟ ستصبحُ غنياً يا ابنَ عمي وسيحملُ إليكَ هذا المالُ الحظَّ الحسنَ فتردُّهُ لي يوماً ما.»

ــ أجلْ، إنّي آخذُه يا أُوجيني، فسأكونُ وضيعَ النّفسِ إذا لم أفعل. ولكنْ أصغي إليّ.

ــ ما الذي تُريدُه؟

ــ أصغي إليَّ يا ابنةَ عمّي العزيزة. إنّ معي علبةً عزيزةً على نفسي كالحياةِ ذاتها، أعطتْني إيّاها والدتي. كان من الممكنِ أنْ تبيعَها كي تُعطيني بعضَ المالِ لكنّ ذلكَ ليس في استطاعتِي أنا. إنّني أتركُها لكِ يا ابنةَ عمّي العزيزة. ثم فتحها قائلاً: أُنظري، إنّ ذهبَها دقيقُ الصّنعِ أليسَ كذلك؟ لكنّ هذا ليس بذي بال، فهاكَ ما يُساوي بالنّسبةِ لي الأرضَ بأسْرِها.

ــ مَنْ هُما هذان الشّخصان؟ إنّ السيدةَ ليستْ تلكَ التي تكتبُ إليها..

— كلاّ، فهذه المرأةُ والدتي عندما كانت صبيّةً وهذا هو والدي. إحتفظي بهذا الكنزِ يا أُوجيني، لكنْ أتْلِفيهِ قبلَ موتِكِ فأنا لا أُريدُ أنْ يذهبَ إلى آخرين.

أخذ شارل يدَ ابنةِ عمّه وقبّلها فقالتْ له: «إنَّك تُشبِهُ والدتكَ فهل كان صوتُها بعذوبةِ صوتِك؟

— أُوه، لقد كان أعذبَ بكثير.

— أُرقدِ الآن يا شارل فأنا لا أُريدُ ذلك لأنّكَ تعب. إلى الغد.

سحبتْ أُوجيني يدَها من يدِ ابنِ عمّها فقال:

— لم يعُدْ لديكِ مال؟

— هذا لا يهمُّ فوالدي غنيّ على ما أظنّ. إنّ له مزارعَ وكروماً وحقولاً..

— لكنْ لو كان لوالدِكِ مالٌ كثير، فهل تعتقدينَ أنّه يتركُكِ في غرفةٍ باردةٍ وكئيبة؟

— إذهبْ للنّوم يا ابنَ عمّي.

نامتْ أُوجيني ونامَ شارل تُساورهُما نفسُ الأفكار.

في صباحِ اليومِ التّالي تنزّهتْ أُوجيني مع شارل قبلَ الغداء، ثم لزِمَ هذا الأخيرُ القاعةَ بينما كانتِ النّساءُ الثّلاثةُ مشْغولاتٍ باستقبال زائري غرانديه كالمُزارعين، والبنّائين. وحواليْ السّاعةِ الخامسةِ عاد غرانديه من أنجرس، فقال:

— إنّني عائدٌ من أنجرس يا زوجتي وأنا جائع.

صاحتْ نانون من المطبخ:

— أَلَمْ تأكلْ شيئاً منذُ البارحة؟

— لمْ آكلْ شيئاً. !

أحضرتْ نانون الحساء في اللّحظةِ التي أتى فيها دي غراسين يتلقّى أوامِرَ غرانديه قبلَ سفرهِ إلى باريس، فقال:

— كُلْ بهدوء، وسنتكلّم فيما بعد. لكنْ هل تعرفُ سعرَ الذّهبِ في أنجرس؟ إنّني أُريدُ إرسالَ شيءٍ منهُ إلى هناك.

— لا تفعلْ فهناكَ كمّيةٌ كافية. إنّنا صديقانِ طيّبانِ، لذا لا يسعُني أنْ أُخفيَ هذا الأمرَ عنك.

— لكنّ سعرَ الذّهبِ مُرتفعٌ هناكَ كما أعلم.

— قُلْ «كان مرتفعاً» فذاكَ أدقُّ وأصح.

ولمَ اذن؟ ومن أينَ أتى الذهب؟

أجابَ غرانديه بصوتٍ منخفض:

ـ لقد ذهبتُ هذه الليلةِ إلى أنجرس.

دهشَ صاحبُ المصرفِ وتحدّثَ الإثنانِ همساً. في النهايةِ نظرَ دي غراسين إلى شارل وقال له: «إنّي ذاهبٌ إلى باريس يا سيد غرانديه فهل تُريدُ أنْ أفعلَ لكَ شيئاً؟

ـ كلاّ يا سيدي، شكراً.

ـ أشكُره بصورةٍ أفضل، يا ابنَ أخي فسيُسوّي أعمالَ مؤسّسةِ غليوم غرانديه.

ـ وهل هناكَ بعضُ الأملِ؟

صاحَ غرانديه:

ـ أوَلستَ ابنَ أخي؟ ألاَ تحملُ اسمَ غرانديه؟

نهضَ شارل فقبّلَ الأبَ غرانديه وخرجَ شاحبَ الوجهِ ونظرتْ أُوجيني إلى والدِها بسرورٍ فشدَّ هذا الأخيرُ على يدِ صاحبِ المصرف الذي كان يهمّ بالإنصراف.

بعد أنْ أغلقَ غرانديه البابَ، جلسَ وطلبَ مَشروباً من

نانون. لكنّه لم يستطعْ أنْ يستقرَّ في مكانِه فشرعَ يُغنّي. تبادلتْ نانون والسيدة غرانديه وأُوجيني النّظراتِ بصمتٍ لأنهنَّ كُنَّ مُتعباتٍ مِثْلَه.

انتهى غرانديه من الشرّابِ فنظرَ إلى قدحِهِ قائلاً: «إنّ المرءَ لا يكادُ يضعُ القدحَ على شفتيْهِ حتى يفرغَ! هذه هي قصتُنا. إنّ المرءَ لا يستطيعُ أنْ يكونَ في الحاضرِ والماضي، وقطعُ الذّهب لا يُمكنُها أنْ تتدحرَجَ وتبقى في كيسِكَ، وإلاّ لكانتِ الحياةُ أجملَ ممّا ينبغي.»



رحيلُ شارك

في السّاعةِ الثامنةِ من صباحِ اليومِ التّالي كانتِ الأُسرةُ كلُّها بانتظارِ الإفطار. وللّمرةِ الأُولى منذُ وصولِ شارل كانَ الأربعةُ يَبْدونَ راضينَ من بعضِهم حتى الأبُ غرانديه الذي وُفّقَ في بيعِ ذهبه. إنّه يعرفُ أنّ ابنَ أخيه سوفَ يرحلُ قريباً، لذا تركَ الطّفلينِ ـ كما يحلو له أنْ يدعو ابنَ أخيه وابنته يفعلانَ ما يُريدانِه.

عندئذٍ بدأ وقتُ الحبِّ السّعيدِ بالنسبةِ لأُوجيني، التي أعطتْ ذهبَها لابنِ عمّها فيسلكُ قلبُها شيئاً فشيئاً نفسَ الطّريق. كانا يتبادلانِ النّظراتِ كطفليْن، ويقصدانِ الفناءَ والحديقةَ للتحدّث، فيجلسانِ على مقعدٍ حتى لحظةِ غُروبِ الشّمسِ. وبدورِه أدركَ شارل حلاوةَ الحبِّ وهو الذي لم يعشْ مع سيّدتِه في باريس سوى لحظاتٍ صعبة. كان سعيداً

في ذلكَ البيتِ الذي بدأ يُحبُّه، فكانَ يبكّر بالإجتماع بأُوجيني حتى وصولِ الأب غرانديه، أمامَ نانون التي كانتْ تتظاهرُ أنها لا ترى شيئاً. وبعدَ الإفطارِ وذهابِ الأبِ غرانديه إلى حقوله، كان شارل يبقى بينَ الأمِّ والبنتِ فيُسرُّ بمساعدتِهما وبالنّظرِ إليهما وهما تعملانِ. لكنّ شيئاً ما في كلِّ يوم كانَ يعلنُ رحيلَه. كان عليهِ أنْ يذهبَ إلى المحكمةِ لقضايا والدِه وإلى الشّرطة للحصولِ على الأوراقِ اللاّزمةِ للسّفرِ إلى الخارج.

ذات مساء، قال شارل لعمّه: «سيدي، لقد جمعتُ كلَّ الأشياءِ الصّغيرةِ التي يمكنُ أنْ يكونَ لها بعضُ الثّمن، لكنّي لا أعرفُ أحداً في سومير وكنتُ أودُّ أنْ أطلبَ إليكَ هذا الصباح أنْ. . .»

ـ أنْ أشتريَها منك؟

ـ كلاّ يا عمي، بل أنْ تُعطيَني اسمَ من. . .

ـ أعطني ذلكَ يا ابنَ أخي فأذهبُ إلى غرفتي وأعودُ فأُخبركَ بما يُساويه.

عندئذٍ قال شارل:

اسمحي لي يا ابنةَ عمّي أنْ أُقدّم لكِ هذيْنِ الزرّيْن.

ـ بكلِّ سرورٍ يا ابنَ عمي.

ـ وأنتِ يا امرأةَ عمّي، إليكِ كشتبانَ والدتي. إنّه من الذّهب.

ـ شكراً، سأُصلّي من أجلِك صباحَ مساء. وإذا متُّ فستعيدُه أُوجيني إليك.

قال غرانديه وهو يفتحُ الباب:

ـ إنها تُساوي تسعَ مئةٍ وتسعةً وثمانينَ فرنكاً وخمسةً وسبعينَ سنتيماً. لا حاجةَ بكَ للذّهابِ إلى المدينةِ فسأُعطيكَ أنا المال.

ـ لم أكنْ أجرؤُ أنْ أطلبَ منكَ ذلكَ لكنّي كنتُ سأنزعجُ لبيعِ هذه الأشياءِ في المدينةِ التي تسكنُها، فشكراً. آملُ أنْ تقبلَ بأنْ أُهديَكَ شيئاً. هذانِ زرّانِ للأكمامِ أصبحا عديمي الجدوى، وسيُذكّرانِكَ بفتىً مسكينٍ سيُفكّر وهو بعيدٌ عنكم بمَن أصبحوا الآن كلَّ عائلته.

ـ يا ولدي! يا ولدي! هذا غيرُ ضروري! وأنتِ يا زوجتي ما الذي معك؟ آه! كُشتبانٌ ذهبيّ! وأنتِ يا ابنتي؟ ماساتٌ! سآخذُ زرّيْكَ لكنّكَ ستسمحُ لي أنْ أدفعَ أُجرةَ سفرِكَ إلى الهندِ

وسأُعطيكَ ألفاً وخمسَ مئةٍ من الفرنكاتِ سيُقرضني إيّاها غريشو إذ ليس لديّ قرشٌ واحد. إنّ مُزارعي مدينٌ لي أيضاً ببعضِ المال وسأذهبُ لرؤيتِه.

تناولَ غرانديه قبّعتَه وخرجَ فسألتْ أُوجيني ابنَ عمّها:

ـ هل سترحلُ إذن؟

ـ عليّ أنْ أفعلَ ذلك.

عندَ الظّهرِ تلقّى شارل رسائلَ من باريس، وبعد قليلٍ انفردَ بأُوجيني في الحديقةِ وقالَ لها: «لقد سوّى صديقي ألفونس كلَّ أعمالي، فلم أعدْ مديناً بشيءٍ في باريس. لقد باعَ مفروشاتي وأرسلَ بعضَ الرُّزمِ إلى نانت التي سيقلعُ منها مركبٌ إلى جاوة. وبعدَ خمسةِ أيّام سنودّعُ بعضنا، وربّما كان ذلكَ إلى الأبد، أو على الأقلِّ لمدّةٍ طويلة»

ـ أتُحبُّني؟

ـ أوه، نعم! وكثيراً.

ـ سوفَ انتظرُ يا شارل. يا إلهي! انّ والدي أمامَ نافذتِه!

هربتْ أُوجيني مع شارل إلى قربِ مطبخِ نانون حيثُ

أمسكَ بيدِها ووضعها برفقٍ على قلبه. وعندئذٍ تلقّتْ أُوجيني وردّتْ أحلى قبلة.

«عزيزتي أُوجيني إنّ ابنَ العمّ لأفضلُ من الأخِ، فهو يستطيعُ أنْ يتزوّجَ من ابنةِ عمه.»

صاحتْ نانون وهي تعودُ إلى مطبخِها: «إنْ شاء الله» فهربَ شارل وابنةُ عمّه هذه المرّةِ إلى القاعةِ وعادتْ أُوجيني إلى عملِها.

وعندما شرعَ شارل بترتيبِ أمتعتِه، كانتْ أُوجيني تتجوّلُ في الحديقةِ وهي تبكي.

صباحَ يومِ الرّحيل، كان الإفطارُ حزيناً. وفي السّاعةِ العاشرةِ والنّصفِ واكبتِ العائلةُ بأكملِها شارل إلى العربةِ التي سيُسافر فيها، فخرجَ جميعُ تجّارِ الشّارعِ لرؤيتهم وهم يمرّون. وأمامَ المقهى عانقَ غرانديه شارل وقال له: «إذهبْ فقيراً وعُدْ غنياً يا ابنَ أخي، فلا يبقى شيءٌ من هذه اللّحظةِ التّعيسة.»

ـ آه! شكراً يا عمّي! إنّكَ تُخفِّفُ من قسوةِ لحظةِ الرّحيلِ هذه.

شدّتْ أُوجيني بكلِّ قواها على يدِ ابنِ عمّها الذي بكى. كان غريشو الذي رافقهم يبدو عليه وحدَه أنّه يبتسم.

قال غرانديه: «سفرةً مُوفقة» أمّا أُوجيني وأُمُّها فقد ذهبتا إلى الجانبِ الآخرِ من الطّريقِ كيْ تستزيدا من رُؤْيةِ شارل. لوّحتْ أُوجيني بمنديلِها الأبيضِ وقالتْ في اللّحظةِ التي لمْ تعُدْ ترى فيها العربة: «بودّي يا أمّاه أنْ أكونَ قويّةً جداً للحظة».



رأسُ سَنةٍ حزين

بعدَ رحيلِ شارل، وجدتْ أُوجيني الدارَ فارغةً، وأعربتْ عن رغبتِها بأنْ تتركَ غرفةَ ابنِ عمِّها كما كانتْ عند سفره، إذ مَنْ يدري؟ فقد يعودُ أبكرَ مّما يُعتقد. أجابتْ نانون: «آه! بودّي أنْ أراه هنا، فقدِ اعتدتُ عليه إنّه سيّدٌ وديع.»

غداةَ رحيلِ شارل، وعندَ عودتِهم من الكنيسة، اشترتْ أُوجيني خارطةً للعالم علَّقتْها على جدارِ غرفتها. وهكذا استطاعتْ تتبُّعَ ابنِ عمِّها وهو في طريقهِ إلى الهند، كما لو كانتْ في المركبِ تراهُ وتطرحُ عليه ألفَ سؤال: «هل أنتَ بخير؟ ألاَ تشعرُ بألمٍ؟ هل تُفكّرُ بي عندما ترى هذه النّجمة؟»

في الصّباحِ، كانتْ تبقى طويلاً على مقعدِ الحديقةِ حيثُ قالا لبعضِهما كثيراً من الكلماتِ الحلوةِ فتُفكِّرُ بشارل وهي تتأمَّلُ السّماء. وغالباً ما كانتْ تتحدّثُ عنْه مع نانون

ووالدتِها. وفي المساء عندَ مجيءِ أصدقاءِ والدِها، كانتْ تتظاهرُ بالمرح.

انقضى شهرانِ على هذه الحال، لكنّ الأمرَ لم يعدْ كما كان في السّابق. فبالنسبةِ للنّسوةِ الثّلاثةِ، كان شارل لا يزالُ يعيشُ معهنّ ويروحُ ويجيء. وصباح يومِ أحدٍ أخبرتْ أُوجيني أُمَّها أنّها قد اعطتْ كلَّ قِطعها الذّهبيّة إلى ابنِ عمّها، فقالتْ لها: «هل أعطيْتِه كلَّ شيء؟ ماذا تقولين لأبيكِ اذا أرادَ رؤيةَ ذَهَبِكِ؟»

ومنذُ ذلكَ اليوم عاشتِ المرأتانِ في دوّامةٍ من الخوف. كانتِ السّنةُ ستنتهي بعدَ ثلاثةِ أيّام ففكّرتِ السيدةُ غرانديه أنّ بِوسْعِها أنْ تطلبَ بعضَ القطعِ من السيد دي غراسين أو من آل غريشو. وفي كل مرّةٍ كانتْ أُوجيني تُجيب: «لقد أحسنتِ صُنْعاً.»

صباح الأوّلِ من كانون الثاني عام ١٨٢٠ نادتِ السيدةُ غرانديه زوجَها قائلة: «مُرْ يا غرانديه بإشْعالِ قليلٍ من النّارِ في غُرفتي لأنّني أشعرُ بالبرد. لقد بدأتُ أهرمُ ثم إنّ أُوجيني ستأتي لارتداءِ ثيابِها هنا، فلا يجبُ أنْ تُصابَ بسوء.

ـ ما هذه اللّغةُ! كيفَ تبدأين السّنةَ يا سيدة غرانديه؟ أفعلُ ما تُريدينَه اذْ لا أُريدُ أنْ تُصابي بسوء.

قالتِ المرأةُ المسكينة:

ـ إنّكَ شديدُ المرحِ هذا الصّباح.

ـ أنا دائمُ المرح. سنأكلُ جيداً اليوم. لقد أرسلَ لي دي غراسين شيئاً طيّباً، ومن الضروري أنّ هناكَ أيضاً شيئاً جميلاً لأُوجيني. لمْ يعدْ لديَّ ذهبٌ يا زوجتي. كان لا يزالُ عندي بعضُ القِطَعِ القديمة. . .»

وهكذا فقد كان غرانديه شديدَ السرورِ في ذلكَ الصباح لأنّه تلقى نقوداً ولأنَّ أعمالَ أخيه قد سُوِّيتْ فكانَ كلُّ شيءٍ على أحسنِ ما يُرام.

خرجَ غرانديه في الصّباحِ وعادَ بعد قليل، يتبعُهُ رجلٌ يحملُ أكياساً فقال أحدُ التجّار: «إنّه يتلقى مالاً من كلِّ مكان» وأجابَ آخر: «سينتهي به الأمرُ إلى شراءِ سومير بأسرِها.»

وصلَ غرانديه إلى الدّارِ فصرفَ الرّجلَ ونادى نانون قائلاً: «هل المرأتانِ في الكنيسةِ؟»

ـ أجل يا سيدي.

بعد قليلٍ، كانتْ كلُّ الأكياسِ في غرفةِ غرانديه. وصلتْ أُوجيني وأُمها فقال غرانديه وهو يُقبِّلُ ابنتَه: «آه يا ابنتي، إنّني أعملُ من أجلِكِ كما ترين فأنا أبغي سعادَتكِ، والمالُ ضروريٌّ للسّعادة. خُذي فهذه قطعةٌ ذهبيّة أحْضَرْتُها من باريس. أنتِ وحدَكِ تملكينَ ذهباً فأريني إيّاه يا ابنتي.»

إنّ الطّقسَ شديدُ البرودة، فَلْنتناولِ الطّعام.

ـ حسناً فَلْناكُلْ. وأنتِ أيضاً يا زوجتي. . .

ـ لستُ جائعة.

ـ آه! بِوُسْعِكِ أنْ تأكلي فأنتِ امرأةٌ صلبةُ العود.

كانت المرأتانِ بحالةِ خوفٍ شديدة، أمّا غرانديه فكانَ يتحدّث ويأكلُ مَرِحاً. وحوالي السّاعةِ الحاديةِ عشرة، نادى نانون وقال لها: إنْزعي كلَّ ذلكَ واتركي الطّاولةَ كيْ نستطيعَ رؤيةَ ذهبكِ يا ابنتي. لديكِ خمسةُ آلافٍ وتسعُ مئةٍ وتسعةَ وخمسينَ فرنكاً ستُصبحُ مع هذه القطعةِ ستّةُ آلاف فرنكٍ إلاّ فرنكاً واحداً. يجبُ أنْ تُعطيني ذهبَكِ يا أُوجيني، ألا تُريدينَ يا ابنتي الصّغيرة؟ لم يَعدْ لديَّ ذهب. سأبيعُ ذهبَكِ وأُعطيكِ

نقوداً بدلاً منه. ربّما كنتِ تُريدينَ الإحتفاظَ به. أحضرِيه لي في كلِّ الأحوال. إذْهبي لإحضارِه.

نهضتْ أُوجيني فسارتْ بضعَ خطواتٍ باتّجاهِ البابِ ثم التفتتْ فنظرتْ إلى والدِها وقالتْ: «لم يَعُدْ ذهبي بحوْزتي.»

ـ لَمْ يَعُدْ لديكِ ذَهَبُكِ!

ـ كلا! لم يعد لدي.

ـ أنتِ مُخطئةٌ يا أُوجيني.

ـ كلا.

صاحَ وهو يركضُ نحوها:

ما الذي فعلتِهِ بقطعِكِ يا أُوجيني؟

ـ سيّدي، إنّ والدتي مريضةٌ فلا تَقْتُلْها.

نظرَ غرانديه إلى زوجتهِ الشّاحبةِ اللّونِ والتي كانتْ تُنادي نانون لِمساعدتِها على الوصولِ إلى سريرِها. أمسكتْ نانون وأُوجيني بذراعيْ السيدة غرانديه، فطلبَ غرانديه إلى ابنتِه أنْ تنزلَ بعد أنْ تُوصلَ أُمَّها. وعندما عادتْ مُسرعةً قال لها: «قُولي لي يا ابنتي أينَ ذهبُكِ.

ـ إذا كنتَ يا والدي قد أعطيْتني شيئاً ليس لي فاستْعِدْهُ.

ـ أعتقدُ أنّني لنْ أُعطِيَكِ شيئاً بعد الآن. ألم تعودي إذن تُحبّينَ والدَكِ؟

ـ إنّني أُحبُّكَ يا والدي حتى لو كنتَ غاضباً لكنّي أُذكِّرُكَ بأنّني في الثالثةِ والعشرينَ. لقد فعلتُ بمالي ما حلا لي أنْ أفعلَه.

ـ أينَ هو؟

ـ هذا أمرٌ يخصُّني.

ـ إنّ الأمرَ سيءٌ إذا كُنتِ لا تستطيعينَ قولَه لأبيكِ.

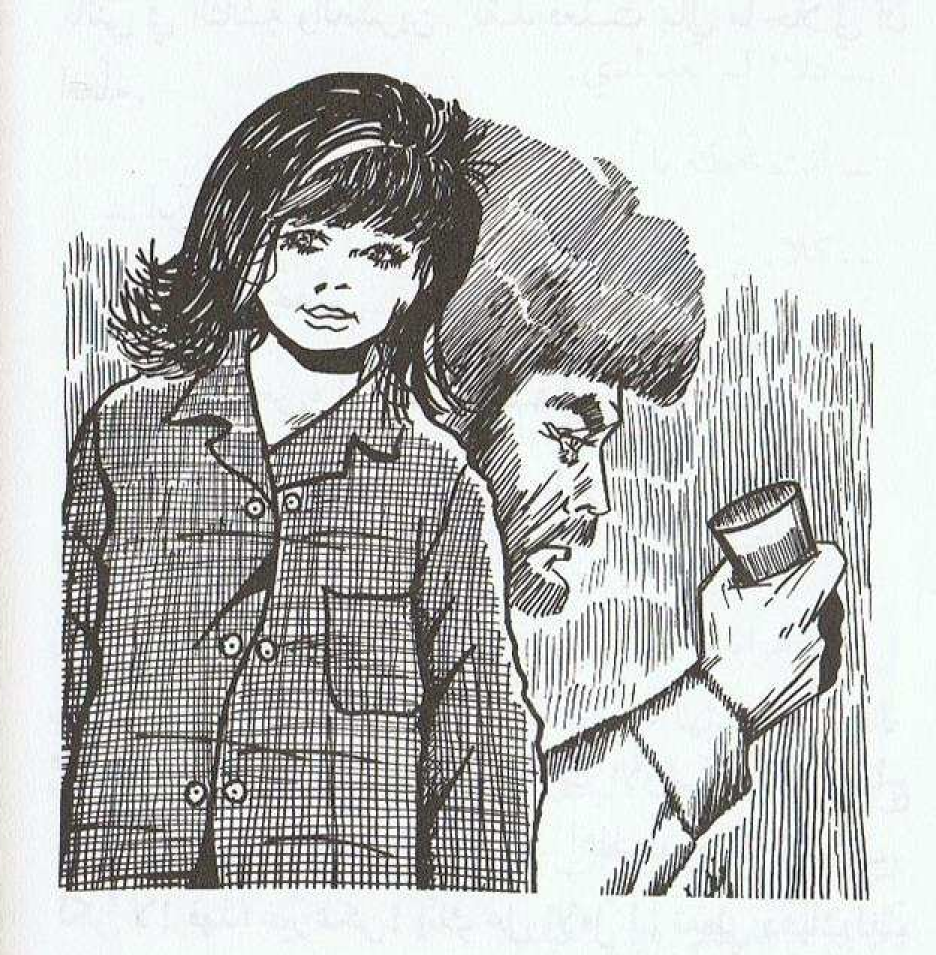
ـ أَلَمْ أكنْ حُرةً في أنْ أفعلَ به ما أريدُه؟

ـ لكنّكِ طفلة!

ـ إنّ عمريَ يتجاوزُ العشرينَ.

عندئذٍ شحبَ وجهُ غرانديه فضربَ الأرضَ بقدميْهِ وصاح في النّهاية: «يا للإبنةِ الشّرّيرة! لقد أعطيتِ ذهبَكِ لشارل. لكنْ لا! فهذا غيرُ ممكن! إنّكِ على الأقلّ لم تعطي ذَهَبَكِ لقاءَ لا شيء. إذهبي إلى غرفتِكِ وابقي فيها حتى أقولَ لكِ أنْ

تخرجي منها. ستحملُ إليكِ نانون فيها بعضَ الماء والخبز. لقد سَمِعْتِني ، فَسيري!.».



الخُبزُ الجافّ والمـاءُ

أخذت أُوجيني تبكي وركضتْ إلى قربِ والدتِها. أمّا غرانديه فلقد ذهب إلى حديقتِه يذرعُها طولاً وعرضاً. ثم فكّر أنّ ابنتَه مع زوجتِه فصعدَ فوراً وسمعَ السيدةَ غرانديه تقول: «يا ابنتي المسكينة!» فقال هو:

ـ لم يعدْ لها أبٌ. حسناً إنّكِ لستِ في غرفتِك فاذهبي إليها.

ـ أتريدُ أنْ تنتزعَ منّي ابنتي يا سيدي؟

ـ إذا كنتِ تُريدينَ الإحتفاظَ بها فاحمليها واذهبي. لكنْ أينَ الذّهب؟ ما الذي حلَّ بِذَهَبِها؟

نهضتْ أُوجيني فنظرتْ إلى والِدها وعادتْ إلى غرفتِها. التفتَ غرانديه نحو زوجته قائلاً: «لقد أعطتْهُ دون شك إلى ذلكَ العاطلِ شارل الذي لم يكنْ يُريدُ سوى مالِنا.

ـ لمْ أكُنْ أعرفُ شيئاً من هذا. إنّ ابنتَكَ تحُبُّكَ فلا تُسِيء إليها.

ـ لن أراها ولن أتحدّثَ إليها بل ستبقى في غرفتِها وتعيشُ على الخبزِ والماءِ إلى أنْ تقولَ لي أينَ ذَهَبُها.

ـ سيّدي، إنّ أُوجيني هي ولدُنا الوحيد.

ـ إذا كنتِ تُريدينَ أنْ تحصلي على الهدوء، فاحملي ابنتَكِ على الكلام.

ـ حسناً، إنها لم تَقُلْ لي شيئاً فهي مِثْلُكَ.

ـ أنتِ تُريدينَ أنْ تسخري منّي.

ـ إذا كنتَ تُريدُ أنْ تقتلَني فما عليكَ إلاّ أنْ تستمرَّ هكذا. أَعِدْ إليَّ ابنتي يا سيدي.

ـ إنّني ذاهبٌ إذ لم أَعُدْ أستطيعُ البقاءَ هنا.

عندما أغلقَ البابَ ثانيةً، اقتربتْ أُوجيني من أُمّها وقالتْ لها: «إنّ لديكِ الكثيرَ من الشّجاعةِ من أجلِ ابنتِكِ.»

ـ أترينَ يا ابنتي - إلى أينَ تقودُنا الأمورُ...

عندئذٍ سألتْ نانون وهي تدخلُ الغرفة: «أصحيحٌ أنّ الآنسة ستعيشُ بقيّةَ أيّامها على الخبزِ والماء؟

ـ وما أهميةُ ذلك؟ لكنْ لا تقولي كلمةً واحدةً من هذا.

في القاعةِ تعشّى غرانديه وحدَه للمرّةِ الأُولى منذُ أربعةٍ وعشرينَ عاماً، فلم تستطعْ نانون أنْ تمنعَ نفسَها من القول: «ليسَ من المُمتعِ أنْ يكونَ المرءُ لوحدِه عندما يكون عندَهُ امرأتانِ في دارِه.»

ـ أنا لا أُكلِّمكِ أنتِ، فاحفظي لسانَكِ وإلاّ طَرَدْتُكِ. سيأتي بعضُ النّاسِ هذا المساء فاشْعلي النّار.

في السّاعةِ الثّامنةِ وصلَ آل غريشو والسيدةُ غراسين وابنُها فتعجّبا برؤيةِ غرانديه وحيداً. قال هذا الأخيرُ: «إنّ زوجتي مريضةٌ قليلاً وأُوجيني بقربِها.»

ذهبتِ السيدةُ دي غراسّين لرؤيةِ زوجةِ غرانديه وقالتْ وهي تنزلُ: «إنها ليستْ في حالٍ جيّدة. وفي سنِّها يجبُ أنْ ينتبهَ المرء.»

ردّ غرانديه:

ـ سنرى ذلك.

بعدَ قليلٍ قالتِ السيدةُ دي غراسّين في الشّارع لآل غريشو: «هناك شيءٌ جديدٌ عند آلِ غرانديه، فالأمُّ في حالٍ

سيّئةٍ والبنتُ قدْ أكثرتْ من البكاءِ هل يُريدُ أنْ يُزوِّجَها لشخصٍ لا تُريدُه؟»

نامَ غرانديه فأتتْ نانون إلى غرفةِ أُوجيني تحملُ إليها الطّعام.

مرّتْ بضعةُ شهورٍ كان غرانديه يأتي أثناءَها لرؤيةِ زوجتِه في ساعاتٍ مُختلفةٍ دونَ أنْ يُكلِّمَ ابنتَه. لم يُغيِّرْه شيءٌ فكانَ يروحُ ويجيءُ كالعادةِ كما لو لم يحدثْ شيء. وبعد قليلٍ أخذَ سكّانُ سومير يتساءلونَ عمّا حدثَ في دارِ غرانديه، وعلمتِ المدينةُ بأسرِها أنّ الآنسةَ غرانديه منذُ اليوم الأوّلِ في الشّقةِ وبأمرٍ من أبيها سَجينةُ غرفتِها، تعيشُ على الخبزِ والماءِ، دونَ نارٍ وأنَّ نانون تحملُ إليها ما تأكُله، وأنّها ترعى والدتَها في غيابِ والدِها. ومنذُ ذلكَ الحينِ أخذَ النّاسُ يدُلّونَ على غرانديه ويتحدّثونَ بصوتٍ مُنخفضٍ عندما يمرُّ في الشّارع.

كانتْ أُوجيني حزينةً لرؤيةِ والدتِها مريضة.

أخيراً وذاتَ مساءٍ في نهايةِ الرّبيع، تعبتِ السيدةُ غرانديه من الألمِ والمرضِ فتحدّثتْ إلى الرّئيسِ غريشو وإلى عمّه اللّذيْنِ جاءا لرُؤْيتِها.

أتعيشُ ابنةُ ثلاثةٍ وعشرينَ عاماً على الخبزِ والماء!

صاح الرّئيس:

ـ وبدونِ سبب!

ـ إطمئنّي يا سيّدتي فسأُوقفُ هذا الأمر ابتداءً من الغد.

سمعتْ أُوجيني حديثاً عنها فخرجتْ من غرفتِها وقالت:

ـ أيهُّا السيّدانِ أطلبُ إليكما ألاّ تهتمّا بهذه القضيّةِ فأبي هُوَ السيدُ في داره. إنّني أشكرُكما لِما كنْتما تريدانِ عملَه، وسأُسرُّ إذا أوقفْتُما الإشاعات التي تُسمعُ في المدينة.

قالتِ السيدةُ غرانديه: «إنّها مُحِقّة».

ـ آنستي، إنّ أفضلَ طريقةٍ لإيقافِها، هي ردُّ حريّتكِ إليك.

ـ حسناً يا ابنتي، دعي السيد غريشو يتصرّفُ فهو يعرفُ كيفَ يُكلِّمُ أباك. وإذا أردتِ أنْ تَريني سعيدةً فيجبُ أنْ تَعودي إلى ما كنتِ عليه من وفاقٍ مع والدِكِ.

في اليومِ التالي، حضرَ الاستاذُ غريشو في ساعةٍ مُبكّرةٍ فوجدَ غرانديه جالساً على مقعدٍ في الحديقة. بادر الأخيرُ إلى سؤالِه:

ـ بمَ أخدِمُكَ يا استاذ غريشو؟

ـ لقد أتيتُ لأُحدِّثَك عن الأعمال.

ـ آه! هل لديك قليلٌ من الذّهبِ تُعطيه لي مُقابل بعضِ النّقود؟

ـ كلا! لقد أتيتُ أُحدِّثُك عن ابنتِكَ وعنك، فذلكَ حديثُ الجميع.

ـ وبمَ يهتمُّ النّاس؟

ـ إنّ زوجتَك مريضةٌ جداً ومن الضرويّ استدعاءُ الطَّبيب.

ـ وهل تعرفُ ما بزوجتي؟ إنّ هؤلاء الأطباءَ لا يكادونَ يطأونَ أرضَ دارِكَ حتى يجيئوا خمسَ أوْ ستَّ مرّاتٍ في اليوم.

ـ إفعلْ ما تشاء يا غرانديه لكنّ هناكَ أمراً آخر. إذا ماتتِ السيدةُ غرانديه فسيكونُ بوُسْعِ ابنتِك أنْ تُطالبَ بحصّتِها. لذا يجبُ أنْ تُلاطفَها.

ـ وهل تعرفُ ما فعلتْه؟

ـ ماذا؟

ـ لقد أعطتْ ذهَبها.

ـ حسناً، وهل كان لها؟

ـ الجميعُ يقولونَ لي ذلك! هذا صحيحٌ إذنْ. سوفَ تقتُلُني ابنتي وتأكُلُني.

ـ يجبُ أنْ تحصلَ على مالِ أُمِّها.

ـ آه! إنّني أُحبُّ زَوْجتي كثيراً وهي لحسنِ الحظّ صلبةُ العود.

ـ لن تبقى شهراً على قَيْدِ الحياة.

ـ لكنْ ما الذي يجبُ أنْ أفعلَه؟

ـ تصالحْ يا صديقي مع أُوجيني وكُنْ راضياً مرّةً في حياتِك.

بعد ذهابِ غريشو، صعدَ غرانديه إلى غرفةِ زوجتِه وقال لها:

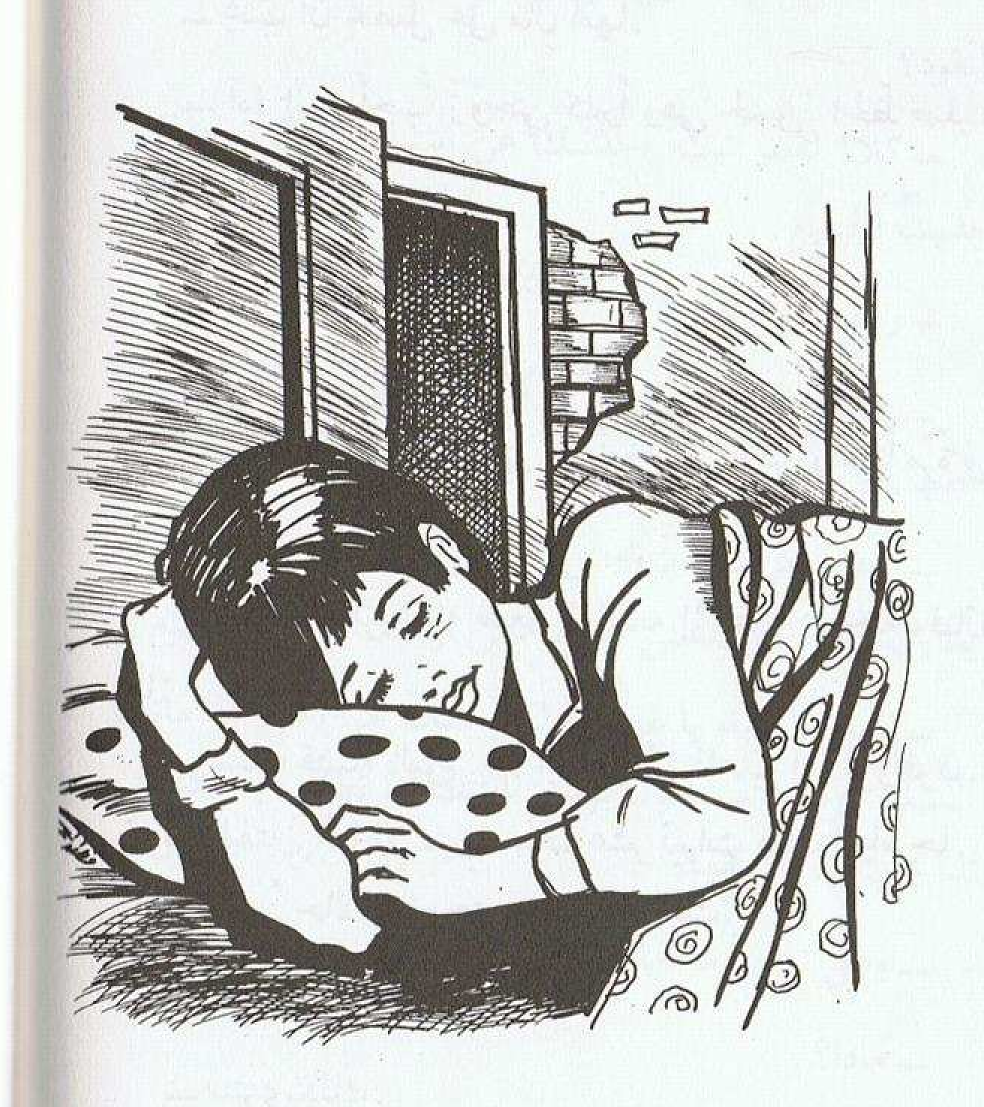
بوسعِكِ قضاءَ اليومِ مع ابنتِك فأنا ذاهبٌ إلى فروافون. كُونَا لطيفتينِ أنْتمُا الإثنتينِ. هاكَ عشرَ ليرات فالهُوَا وامْرحا. أنتِ أحسنُ حالاً يا زوجتي، أليسَ كذلك؟

ـ هل غفرتَ لابنتِكَ؟

ـ سنرى ذلك.

ـ أُوجيني! تعالي وقبّلي والِدكِ فلقد سامَحكِ.

دخلتْ أُوجيني غرفةَ أُمِّها وهي في غايةِ السرورِ لكنّ غرانديه كانَ قد ذهب.



موتُ الزَّوْجَينِ غرانديه

في الطّريقِ لم يُفكّرْ غرانديه إلاّ في ذَهَبِه؛ قال لنفسِهِ إنّه لأمرٌ مُخيفٌ أنْ يتقاسمَه مع ابنتِه. لذا عاد إلى سومير وقد صمّمَ على مُلاطفةِ أُوجيني كيْ يستطيعَ الإحتفاظَ بملايينهِ حتى موْتِه. وعندما وصلَ إلى غرفةِ زوجتِه، كانتْ أُوجيني تُري أُمَّها العلبةَ الذّهبيّةَ التي تركَها ابنُ عمّها. نظرَ غرانديه إلى العلبةِ وأرادَ أنْ يأخذَها فرفضتْ أنْ تُعطيَها له وتناولتْ سكّيناً ثم قالتْ لأبيها أنّها ستقتلُ نفسهَا إذا أخذَ فقط قطعةً صغيرةً من الذّهب. نظرَ غرانديه ثانيةً إلى العلبةِ الذّهبيّةِ ثم إلى ابنتِه وقال أخيراً:

«إحتفظي يا ابنتي بِعُلْبَتكِ الذّهبيّة. وأنتِ يا نانون إذْهبي لإحضارِ الطّبيب. سوفَ نعقدُ صلحاً يا زوجتي. أليسَ هذا صحيحاً يا ابنتي؟ لم يعدْ هناكَ خبزٌ جاف. إنّكِ تُحبّينَ ابنَ عمِّكِ وستتزوَّجينه. لكنْ عيشي طويلاً يا زوجتي المسكينة.»

ذهبَ غرانديه إلى غرفتِه وعادَ بقطعٍ ذهبيّةٍ نثرَها على السرير قائلاً: «خُذي يا أُوجيني، خُذي يا زوجتي، إنّها لَكُما.»

تبادلتْ أُوجيني وأمُّها النّظراتِ وهما مَدْهوشتانِ، وقالتِ الأُولى: «إستعدْ هذه القطعَ يا والدي، فنحنُ لا نحتاجُ سوى حنانِكَ»

أجابَ وهو يستردُّ القطعَ الذّهبيّة:

ـ وهو كذلك. فلنعشْ كأصدقاءَ طيّبين ولنَنْزِلْ جميعُنا إلى القاعةِ لِتَناوُلِ العشاء. أنْتُما لا تعرفانِ كم أُحبُّكما.

بعد قليلٍ وصلَ كبيرُ أطباءِ سومير فقال للسيد غرانديه أنَّ زوجتَه بحالةٍ سيّئةٍ للغاية لكنّها بفضلِ العناية ستتمكن من العيشِ حتى الخريف، فطلبَ إليه الزّوجُ أنْ يأتيَ كلّما كانَ ذلك ضرورياً ولم يستطعْ أنْ يمنعَ نفسَه من التّفكير بتقسيمِ أملاكِهِ إذا ماتتْ زوجتُه.

منذُ ذلك اليوم فعَل غرانديه كلَّ ما طلبته زوجتُه واعتنتْ أُوجيني بالمريضةِ لكنّ ذلك لم يمنعِ السيدةُ غرانديه من السّيْرِ سريعاً نحو الموت. لم تكنْ تشكو ابداً لكنّها كانتْ حزينةً لفراقِ ابنتِها ولِتَرْكِها تُعاني من مصائب العالم. وقبلَ أنْ

تموت، قالت لها: «ابنتي، لا سعادةَ إلاّ في السماء وستعرفينَ ذلك يوماً ما.»

ومنذُ ذلكَ اليوم أصبحَ الأب غرانديه طيّباً مع ابنتهِ، ولما لم يكنْ ذلك من عادتِهِ فلقدْ تعجَّب الجميعُ وظنّتْ أُوجيني أنّها لم تكنْ تعرفُ أباها جيداً. لكنّ هذا التصرّف لم يلبثْ أن اتّضحَ سببُه. وذاتَ مساءٍ حضرَ غريشو للعشاء، وبعدَ الأكلِ التفتَ الأبُ غرانديه نحو ابنتهِ قائلاً: «يا ابنتي العزيزة، إنَّ كلَّ أملاكِ أُمِّكِ هي الآن لَكِ، فلديْنا أعمالٌ صغيرةٌ نقومُ بها معاً، أليسَ كذلكَ يا غريشو؟»

ـ أجلْ يا آنستي، فالسّيدُ والدك لا يريدُ أنْ يقتسمَ الأملاكَ أو أنْ يبيعَها.

ـ وما الذي يجبُ أنْ أفعله يا سيد غريشو؟

ـ يجبُ أنْ تُوقِّعي هذه الورقةَ التي تتنازلينَ فيها عن كلِّ أملاكِ والدتِكِ.

ـ أنا لا أفهمُ شيئاً فقلْ لي أينَ يجب أنْ أُوقِّعْ.

في هذه اللّحظةِ نظرَ الأبُ غرانديه إلى الورقةِ ثم إلى ابنتِه وقال:

ـ يا ابنتي، بدلاً من توقيع هذه الورقةِ، إذا اتّفقت معي أمامَ الكاتبِ العدل. . . فسأعطيكِ مئة فرنكٍ في الشّهر.

ـ سأفعلُ ما يروقُ لكَ يا والدي.

عندئذٍ قال الكاتبُ العدل:

ـ يجبُ عليّ يا آنستي أنْ ألفتَ انتباهَكِ إلى أنّه لنْ تملكي شيئاً.

ـ يا إلهي! وما الذي يهمُّني من ذلك؟

صاحَ غرانديه وهو يضمُّ ابنتَه بقوّة: «لقد انتهى الأمر.»

وفي اليومِ التّالي اقرَّتْ أُوجيني أمامَ الكاتبِ العدلِ أنَّ كلَّ أملاكِ الدّارِ لأبيها.

منذُ ذلكَ اليومِ علّمَ غرانديه ابنتَه كيفَ تأمُر بتحضيرِ الطّعام وكيف تجمعُ المالَ الآتيَ من المزارعِ وكيف تُديرُ البيت. وعلّمها أيضاً أسماء مزارعه ودلّها على مواقعِ حقوله.

وبعدَ ثلاثِ سنواتٍ أصبحتْ أُوجيني بخيلةً كوالدِها بتأثيرِ العادةِ والأسلوبِ. وذات يومٍ تركَ لها مفاتيحَ المؤنِ فأصبحتْ سيّدةَ البيت.

انقضتْ خمسُ سنواتٍ على هذا المنوال.

وفي نهايةِ العام ١٨٢٧ بلغَ الأبُ غرانديه الثّانيةَ والثّمانين، فمرضَ وعجزَ عن المشي. قال الطّبيبُ إنّه لن يستطيعَ العيشَ طويلاً. وعندما فكّرتْ أُوجيني أنّها ستجدُ نفسَها وحيدةً في العالم تقرّبتْ من أبيها وبذلتْ جُهدَها في العنايةِ به، أمّا هو فكانَ لا يزالُ يفكِّرُ بِذهَبِه، ويقضي كلَّ يومٍ ساعاتٍ طويلةٍ أمامَ أكياسِ الذّهبِ والفضّة. كان يبدو أحياناً وكأنّه نائمٌ لكنّه كان يستيقظ دفعةً واحدة لحظة مجيء مزارعيه للحساب. وبعد رحيلهم كانتْ أُوجيني تُخبِّيءُ الأكياسَ وتُعيدُ المفتاحَ إلى أَبيها الذي كان يتحسَّسُه في جيبِ سُترتِه من وقتٍ لآخر.

كان الكاتبُ العدلُ يعتقدُ أنَّ أُوجيني سوفَ تتزوَّجُ من ابنِ أخيهِ فكانَ يأتي يومياً لرؤيةِ الأبِ غرانديه ويذهبُ إلى الكرومِ والحقولِ لِيُسديَ إليه بعضَ الخدمات.

أشرفَ غرانديه على الموتِ وقضى أيّامَه الأخيرةَ في زاويةِ النار. كان يفتحُ عينَيْهِ فيلتفتُ إلى ابنتِه آمِراً: «ضعي بعضَ الذّهبِ أمامي لأنَّهُ يُريحني.» فتضعُ قِطَعَ الذّهبِ أمامَه ويتأمّلُها ساعاتٍ كطفلٍ بدأ يرى.

بعدَ قليلٍ حلّت النّهايةُ فأتى الكاهنُ إلى الدار. وقبلَ أنْ

يموتَ غرانديه بقيتْ له القوةُ الكافيةُ كي يقولَ لأُوجيني: «إعتني بكلِّ شيء!» هكذا مات الأبُ غرانديه.

وجدتْ أُوجيني نفسَها وحيدةً مع نانون التي كانتْ بالنّسبةِ لها صديقةً أكثرَ منها خادمة. وبعدَ بضعةِ أيّام أعلمَ الكاتبُ العدلُ أُوجيني أنها أصبحتْ تمتلكُ سبعةَ عشرَ مليوناً، لكنّها بقيتْ وحيدةً وغالباً ما كانتْ تبكي وهي تتساءَلُ عن مكانِ ابنِ عمّها شارل.

انصرفتْ أُوجيني لفعلِ الخيرِ حولَها فبدأتْ بإعطاءِ شيءٍ من النُّقودِ إلى نانون التي تزوّجتْ بعدَ قليلٍ وأصبحَ زوجُها حارساً لمزارعِ وحقولِ عائلةِ غرانديه. وبدورها أصبحتْ نانون سيّدةً لخادمتينِ وطبّاخةٍ ووصيفة.

إنقضتْ سبعُ سنواتٍ على رحيلِ شارل دون أنْ تستطيعَ أُوجيني منعَ نفسِها من التّفكيرِ به. كان سَببُ حياتِها هو الحبُّ والسّعادةُ التي قد تحصلُ عليها معه، أمّا أغلى ثروةٍ فلم تكنْ قِطَعَ الأبِ غرانديه الذّهبيّة، بل العلبةَ التي تَركها شارل.

شارلُ آخر

أصبحَ شارل ثرياً في الهند. ولكيْ يكسبَ مزيداً من المال ذهب إلى أفريقيا حيثُ باعَ واشترى رجالاً وحاجاتٍ مسروقة. كان قلبُه قاسياً جافاً. في البدايةِ لازمَهُ وجهُ ابنةِ عمِّه لكنّه بعد ذلك لم يعدْ يعرفُ العدلَ من الظّلم، أوِ الحقَّ من الباطلِ لأنَّ فكرةً واحدةً كانتْ تشغلُ عقلَه، وهي العودةُ إلى باريس ومعهُ نقودٌ كثيرة.

في سنة ١٨٢٧ استقلّ المركبَ عائداً إلى بوردو تحتَ اسمِ كارل سيفار كيْلاَ يعرفُه أحد. وعلى المركبِ التقى بفتاةٍ بشعةٍ غيرِ غنيّةٍ لكنّها نبيلة، فلازمتْهُ أمُّها، السيدةُ دوبريون، وحدَّثتْهُ عن السّعادةِ التي ستجدُها في تركِ الطّابقِ الأرضي من دارِها في باريس لصهرِها ولابنتِها. ثم أفهمتْه أنّه إذا تزوّجَ من ابنتِها فسيحملُ اسمَ دوبريون ويتمكّنُ من الحصولِ على

مهنةٍ جيدة. وأثناءَ الرّحلةِ الطّويلةِ أعطتْه السيدةُ دوبريون ألفَ سببٍ آخر كي تُفهمهُ أنّهُ سيكونُ سعيداً مع ابنتها.

عادَ شارل إلى باريسَ فأتى السيدُ دي غراسين لِرُؤيتِه وحدّثَهُ عن أعمالِ ابيه.

غضبَ شارل وأجابَ أنّه قد عملَ كثيراً لكنْ لنفسِهِ وأنّهُ غيرُ مدينٍ بشيء للأشخاص الذينَ أقرضوا والدَه، وعمّا قريب سيُصبحُ الكونتُ دوبريون. لذا..

بعد بضعةِ أيّامٍ كتبَ لابنةِ عمّهِ في سومير، فبكتْ أُوجيني وهي، تقرأُ هذه الرّسالة: «إبنةُ عمّي العزيزة. أعتقدُ أنّكِ ستعلمينَ بسرورٍ أنّي قد نجحت. لقد حملتِ إليّ حُسْنَ الطّالعِ فأنا غنيٌّ.. أنتِ حرّةٌ يا ابنةَ عمّي وأنا لا أزالُ حراً، لكنْ عليّ أنْ أقولَ لكِ الحقيقة. صحيحٌ أنّني غالباً ما فكّرتُ بكِ لكنّني سأتزوّجُ من الآنسةِ دوبريون. إنّني لا أُحبُّها أبداً لكنّها تحملُ إليّ اسماً ومكانةً مهمّةً لدى الملك، ويجبُ أنْ نفكّر بأولادِنا. ثمّ انني أُريدُ أنْ استقبلَ أُناساً كثيرين وهذا الأمرلن يروقَ لكِ لأنّكِ تُحبِّينَ الحياةَ الهادئةَ والعذْبة.

«سوفَ تجدينَ في هذه الرّسالةِ المبلغَ الذي تكرّمتِ بإقراضي إياهُ فبوسعِكِ أنْ تُعيدي لي عُلبتي...

قالتْ أُوجيني: «أأُعيدُ هذه العلبةَ التي أفديها ألفَ مرةٍ بحياتي! لقد كانتْ أُمي مُحقّةً فما على الإنسانِ إلاّ أنْ يكونَ تعيساً ويموت»

بعد قليلٍ، أعلنتْ نانون قدومَ الكاهن الآتي لِتسقُّطِ أخبارِ أُوجيني التي تهتمُّ بها مدينةُ سومير بأسرها، فوجدَها حزينةً ودون أملٍ تقول: سأودّعُ الحياة.»

ـ الموت! لكنْ عليكِ يا آنسة أنْ تعيشي فأنتِ أُمُّ الفقراء، تُعطينَهم الثيابَ والخشبَ في الشّتاءِ والعملَ في الصيف. كما أنّه لا يجبُ أنْ تبقي عانساً، فتخسري كلَّ أملاكِكِ. صدّقيني وتزوّجي، فهذا هو الشّيء الوحيدُ الذي يجبُ أنْ تفعليه.

في هذه اللّحظةِ أتتْ نانون تقولُ لأُوجيني إنّ السيدةَ دي غراسين قد حضرتْ، فأقرأتْها رسالةً تلقّتْها من زوجها وعلمت أُوجيني منها أنّ شارل في باريس منذُ شهرٍ وأنّهُ لا يُريدُ أنْ يُعطي شيئاً لدائني أبيه. وأضافَ السيدُ دي غراسّين في

رسالتِهِ أنّه لا يريدُ تركَ الأمورَ تجري هكذا فشارل يجبُ أنْ يدفع.

أعادتْ أُوجيني الرسالـة إلى السيدةِ دي غراسّين قائلـةً: «أشكُرُكِ يا سيدتي وسننْظر في الأمر».

ثم صعدتْ إلى غرفةِ والدهـا حيثُ أمضـتْ ما تبقّى من النّهار. وفي المساءِ ظهرتْ أُوجيني كالعـادةِ وسـطَ الأصدقاءِ الذينَ يأتونَ يومياً للعبِ الورق، فأجابتْ كلاً منهم بتهذيب.

وفي السّاعةِ التّاسعةِ، ولحظةَ أنْ همّ الجميعُ بالإنصراف، حدثَ أمرٌ عجيبٌ إذ التفتتْ أُوجيني نحو السيد دي بونفون وقالتْ له: «إبقَ يا سيدي الرئيس.»

تبادلَ الحضورُ النّظرات والهمسات، فهل ستكونُ أُوجيني للرّئيس؟

وعندمـا خرجَ الجميعُ قالـتْ أُوجينـي أخـيراً: «سيدي الرئيس، أنَا أعرفُ ما يُعجبُكَ بي فاترُكْني حرّةً ولا تُذكرني بأيٍّ من الحقوقِ التي يُعطيها لكَ الزّواجُ علي. أكُنْ مستعدةً لأَنْ أُصبح زوجتـكَ. لن تكونَ لي سوى صديقٍ، لكنْ قبـلَ ذلك، يجبُ أنْ تُؤدّي لِيَ خدمةً كبيرة..»

ـ أنَا مستعدٌ لكلِّ شيء.

ـ هاكَ مالاً يا سيّدي الرئيس، فاذهـبْ فوراً إلى باريس حيثُ ستلْتقي بالسيد دي غراسّين. إبحثْ معَهُ عن كلِّ دائني عمِّي وادفع لهم. إنّني أعْرِفُكَ وأعرفُ أنّكَ لا تُريدُ إتعاسي.

قال وهو يركعُ أمامَ قدميْها:

ـ سأفعلُ كلَّ ما تُريدين.

ـ وعندما تدفعُ كلَّ شيء، إحملْ هذه الرّسالة إلى ابنِ عمّي غرانديه.

بعدَ رحيلِ السيد دي بونفون ،تهاوتْ أُوجيني على كرسيِّها وأَخذتْ تبكي.

بعد يوميْن دفعَ السيد دي بونفون كلَّ ديونِ غليوم غرانديه عندَ كاتبِ عدل، وبعد أنْ أدّى واجبَه ذهب إلى شارل غرانديه فأعطاهُ رسالة أُوجيني:

يا ابن عمّي

«إنّ السيد دي بونفـون قد دفـعَ كلَّ ديونِ عمِّـي إذ لقـد فكَّرتُ أنّه دون ذلك لن تستطيعَ الزّواجَ من الآنسة دوبريون. أجلْ يا ابنَ عمّي لقد أصبتَ في حُكْمِكَ على عقليتي فأنا لن

أستطيعَ أنْ أمنحكَ الملذاتِ التي تُريدُ أنْ تجدَها في الحياة. كُنْ سعيداً. وداعاً وستكونُ لكَ دائماً صديقةٌ في شخص ابنةِ عمِّك»

سَعِدَ شارل ثم تعجبَ وسألَ السيد دي بونفون:

ـ إنّ أُوجيني فتاةٌ طيّبة، لكنْ هل هي غنيّة؟

ـ إنها تملكُ ما يفوقُ السّبعةَ عشرَ مليوناً.

ـ سبعةَ عشرَ ملـ. . .

ـ سبعةَ عشرَ مليوناً. أجلْ يا سيدي. وعندما تتزوج سيُشكلُ ذلكَ ثروةً جميلةً. آه، هذا شي يجب ألاّ أُعطيه لسواك.» قال ذلك وقدّم له العلبةَ الذّهبيةَ التي أَحبّتها أُوجيني كثيراً.

بعدَ ثلاثةِ أيّام أعلنَ السيد دي بونفون زواجَه من أُوجيني، وبعد ستّةِ أشهرٍ حصلَ على وظيفةٍ هامّةٍ في أنجرس ثم في الحكومة. أمّا أُوجيني فكانتْ تُقَسِّمُ وقتَها بينَ أنجرس وسومير. وبعد وقتٍ، مات زوجُها فحصلتْ على مزيدٍ من المال.

في الاربعينَ من عمرِها، كانت لا تزالُ جميلةً لكنّها لم

تعرفِ السّعادة. كانتْ تفعلُ الخيرَ في الكنيسةِ وتُحسنُ للأولادِ والشّيوخ. وهكذا استمرّتْ في العيشِ على هامشِ العالم، وهي التي كان بوُسْعِها أنْ تُصبح زوجةً وأمّاً صالحةً، فلم يكن لها زوجٌ ولا أولادٌ ولا أُسرة.

حقاً إنّ العالمَ سيّء.



أسئلة

١ ـ كيف يقضي سكّانُ سومير وقتهم؟

٢ ـ لمَ يُقالُ أنّ الطّقس هو في قلبِ حياتهم؟

٣ ـ ما هي التّفاصيل التي تُظهر أنّ دارَ غرانديه تقعُ في حيٍّ قديمٍ من المدينة؟

٤ ـ كيف أصبحَ السيد غرانديه ثرياً؟

٥ ـ ما الذي يُظهر بخلَه؟

٦ ـ كيف كان يُجيبُ على الأسئلةِ التي تُطرحُ عليه؟ ولماذا؟

٧ ـ مَنْ هي نانون وكيف دخلتْ في خدمةِ السيد غرانديه؟

٨ ـ هل كانتْ راضيةً عن عملِها؟ وما الذي يُظهرُ ذلك؟

٩ ـ لِمَ كان سكّانُ سومير يتعجّبونَ من إخلاصِ نانون لسيّدِها؟

١٠ ـ لمَ كان سكّان سُومير يُشفقونَ على السيدة غرانديه؟

١١ ـ لِمَ كانتْ أُسرتا غريشودي غراسّين تحاولانِ ارضاءَ الاب غرانديه؟

١٢ ـ بلغتْ أُوجيني سنَّ الزّواجِ فما هو رأيُ السيد غرانديه؟

١٣ ـ مَنْ هو المسافرُ الذي طرقَ بابَ غرانديه؟ وكيفَ نُدركُ ذلك؟

١٤ ـ عادَ غرانديه والمسافرُ إلى القاعةِ، فما هو الأمرُ العجيبُ في سلوكِ الأوّل؟

١٥ ـ ما الذي يُظهرُ إعجابَ أُوجيني بشارل؟

١٦ ـ ما الذي فعلتْه أُوجيني لراحةِ ابنِ عمها؟

١٧ ـ لِمَ تمنّتِ السيدة دي غراسين أنْ يأتي شارل لعندها؟

١٨ ـ هل صحيحٌ ما قاله غرانديه عن نفسِه بأنّه مزارعٌ فقير؟

١٩ ـ مرّة أُخرى أظهر غرانديه نجلَه: فما الذي قاله؟

٢٠ ـ لماذا دُهشَ شارل عند عودتِه إلى غرفته؟

٢١ ـ ما هي أحلامُ أُوجيني ونانون؟

٢٢ ـ لِمَ انتحر السيد غرانديه في باريس؟

٢٣ ـ ما الذي طلبهُ من أخيه في سومير؟

٢٤ ـ كيف يصفُ والدُ شارل ابنَه؟

٢٥ ـ بِمَ فكّرتْ أُوجيني غُداةَ وصولِ شارل؟

٢٦ ـ هل تغيّرتْ حياةُ أُوجيني بعدَ وصولِ ابنِ عمّها وكيف؟

٢٧ ـ عندَ عودتِها من نزهتِها مع والدِها والسيد غريشو، شعرتْ أُوجيني بالألم. لماذا؟

٢٨ ـ ما الذي فعلتْهُ أُوجيني لإدخالِ السّرورِ إلى قلبِ ابن عمّها؟

٢٩ ـ لِمَ خافتْ نانون والسيدة غرانديه؟

٣٠ ـ ما الذي أدهشَ شارل في حياةِ ابنةِ عمّه؟

٣١ ـ كيفَ كان يعيشُ في باريس؟

٣٢ ـ لِمَ غضبَ عندما رأى الطّعامَ المقدَّم لشارل؟

٣٣ ـ ما الذي يُظهرُ أنّ غرانديه شرّير؟

٣٤ ـ بكى شارل موتَ والدِه فما الذي أدهشَ غرانديه؟

٣٥ ــ ما الذي يُظهرُ أنّ شارل ولدٌ صالح؟

٣٦ ــ عندَ عودتِه، كان غرانديه مَرِحاً، فلماذا؟

٣٧ ــ لِمَ قالتِ السيدة غرانديه لزوجِها أنها تُصليّ؟

٣٨ ــ لِمَ أفاقتْ أُوجيني كثيراً أثناءَ الليل؟

٣٩ ــ مَن الذي حاول تخفيفَ ألمِ شارل؟ وكيف؟

٤٠ ــ متى شعرتْ أُوجيني بفرحٍ كبيرٍ يغمرُها؟

٤١ ــ يعتقدُ غرانديه أنَّ زوجتَه لا تفقهُ شيئاً من أعماله: فما الذي يُظهرُ ذلك؟

٤٢ ــ لِمَ أخذَ غرانديه يُتأتِىء؟

٤٣ ــ كيف تصرّف غرانديه لإرسالِ السيد دي غراسين إلى باريس؟ وما رأيُكَ بهذه الطريقة؟

٤٤ ــ إلى أين ذهبَ غرانديه ليلاً مع كورنوابيه؟ وما الذي حملَه؟ ولماذا؟

٤٥ ــ ذهبتْ أُوجيني مرّةً أُخرى إلى غرفةِ نومِ ابنِ عمّها. فما الذي فعلتْهُ؟

٤٦ ــ شعرتْ أُوجيني بفقرِ ابنِ عمّها فماذا قدّمتْ له؟

٤٧ ــ هل قَبِلَ شارل فوراً؟ وماذا فعلَ بعدئذٍ؟

٤٨ ــ ما معنى هذه العبارة: «لا يكادُ المرءُ يضعُ الكأسَ على شفتيْهِ حتى يفرغ»؟

٤٩ ــ ما الذي يُفسّرُ سعادةَ غرانديه لأوّلِ مرّةٍ بعد قُدومِ ابن اخيه؟

٥٠ ــ لِمَ أخذَ شارل يُحبُّ منزلَ عمّه؟

٥١ ــ لِمَ اشترتْ أُوجيني خارطةَ العالم؟

٥٢ ــ عند اقترابِ رأسِ السنة خافتِ السيدة غرانديه وابنتُها فلماذا؟

٥٣ ــ غضبَ غرانديه، فبِمَ أجابتْ أُوجيني؟

٥٤ ــ ماذا قرّر غرانديه؟

٥٥ ــ لِمَ مرضتْ السيدة غرانديه؟ هلِ استدعى زوجُها الطّبيب؟ ولماذا؟

٥٦ ــ لِمَ غيّرَ غرانديه رأيَه؟

٥٧ ــ لِمَ غيّرَ سلوكَه؟

٥٨ ــ ماتتِ السيدة غرانديه وشعرَ زوجُها بدنوِّ الأجل فما الذي علّمه لابنتِه؟

٥٩ ــ أُسرِدِ اللّحظاتِ الأخيرةَ من حياةِ البخيل العجوز.

٦٠ ــ كيفَ كسب شارل نقوداً كثيرة؟ وكيفَ فسرَّ لابنةِ عمّه زواجه من فتاةٍ نبيلة؟

٦١ ــ مِمَنْ تزوّجتْ أُوجيني بدورِها؟

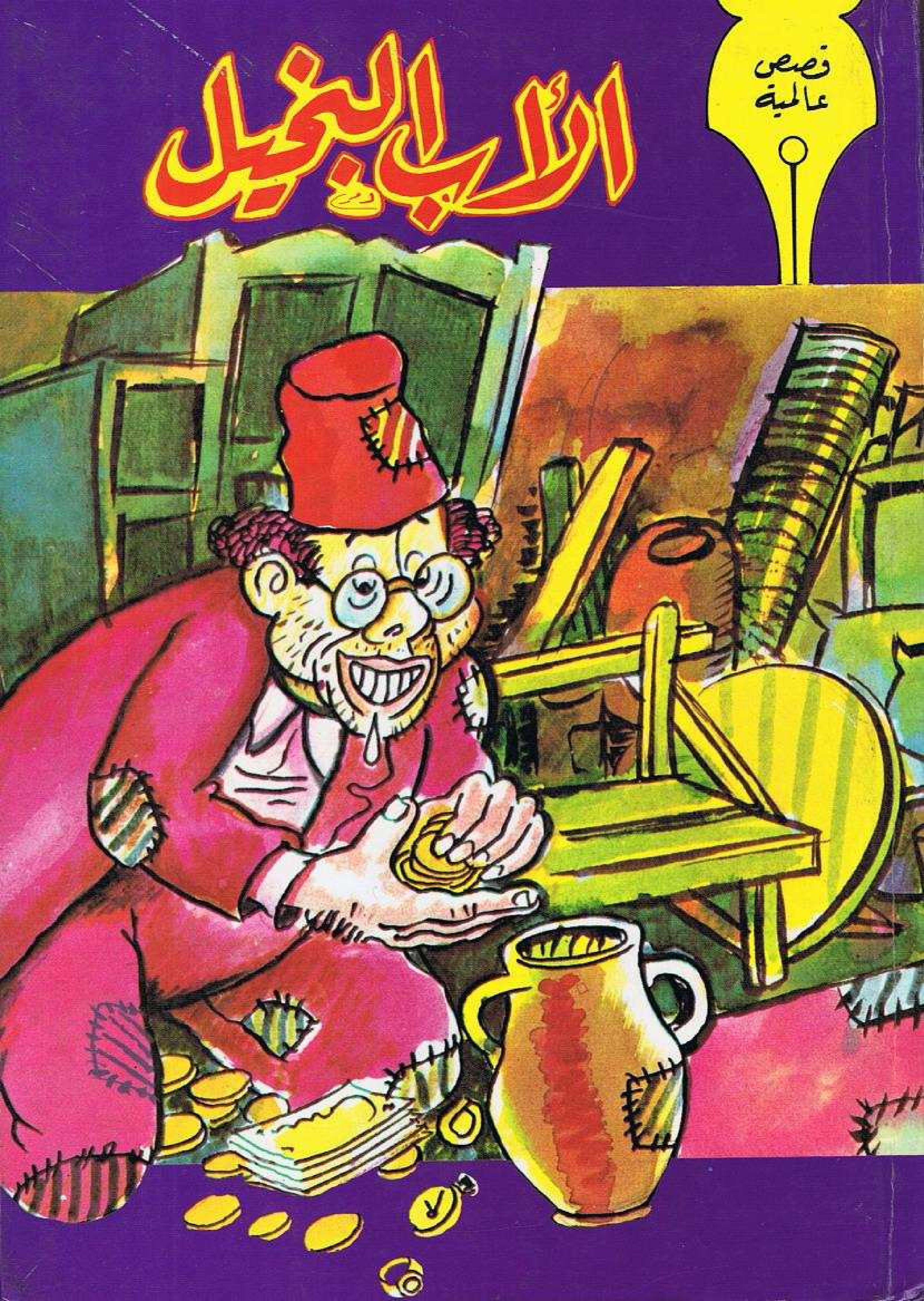
٦٢ ــ ما هو العملُ الطيّبُ الذي قامتْ به من أجلِ ابنِ عمّها؟

٦٣ ــ هل عرفتْ أُوجيني السّعادةَ رُغم ثرائها؟ لماذا؟

٦٤ ــ كيفَ عاشت؟

٦٥ ــ ما رأيُكَ بالعبارةِ الأخيرةِ من القصّة؟

انتهت


قصص عالمية
الأب البخيل